فَندق دمّاحة

الطبعة الثانية
2026

الكتاب	فندق دَمَّاحة
الكاتب	شرف الدين عكري
تاريخ النشر	الطبعة الثانية 2026
الترقيم الدولي	978-1-861-64253-0
لوحة الغلاف	الفنانة نجاة داود
التصميم	بكري خضر

الناشر
دار المصورات

للنشر والطباعة والتوزيع

الخرطوم غرب
شارع الشريف الهندي
المتفرع من شارع الحرية
ت:249912294714+
elrayah1995@gmail.com

المدير المسؤول: أسامة عوض الريح

حقوق النشر محفوظة للمؤلف©

لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أونقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

دار المصورات للنشر غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

رواية

فَندق دمّاحة

شرف الدين عكرى

أماطلُ منطق الزّمن، الجاثِية أحكامُه فوقَ خرائطِ أحلامي، حتّى أخطّ بماءِ الغيمِ أثراً على جِداريةِ الحياة.

شرف الدين عكري

إهداء:

إِلَى كُلِّ الذينَ أُجْبِروا عَلَى عَيْشِ حَياةٍ لا تُشْبِهُهُم...

« ... إنّ معظم فنادق فاس مخصّصة للصّناعة والتّجارة.»

«وكما سبق ذكره، فإن الفناء قد يكون محلاً للبيع بالمزاد، ولا يستعمل في أغلب الأحيان إلاّ كمكان للمرور والإيداع المؤقّت للسّلع التي لم تحلّ بعد.

ويكتري الحجر المطلّة على الفناء في الطّبقة السّفلى وأروقة الطوابق العلوية الصّنّاع، خاصّة منهم الإسكافيون، أو تجّار الجملة أو نصف الجملة، الذين يضعون بها سلعهم قبل بيعها في المدينة أو تصديرها. وقلّما يتعايش التّجار والصّناع في فندق واحد، فكلّ الحجر يحتلّها إمّا تجار أو صنّاع، وهكذا فإنّ فندق النجّارين مكريّ بكامله للتّجار، كفندق التّطوانيين أو فندق القطانين أو الفندق الجديد، وبعكس ذلك لا يؤوي فندق المشاطين أو فندق السبيطريين سوى الصّنّاع.»*

* روجي لوطورنو: «فاس قبل الحماية – الجزء الأوّل ص ٤٥٩ (ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر)، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان»

أرسلتِ الشّمس أشعّتها تداعبُ جفنيّ المثقلين، فتمطّى جسدي طوعاً لطرد بقايا النوم.

وثبتُ بعدها، أزحتُ الستائر، وأترعتُ النّافذة، فتركتُ رئتيّ تعبّان أنفاساً متلاحقةً من هواء الصّباح النّقيّ.

خلّفتُ النّافذة وبهاء الصّباح وراء ظهري، وقفلتُ عائِداً صوب مكتبي الصّغير، حتّى إذا بلغتُ إليه سحبتُ الكرسيّ وجلستُ، فأخرجتُ مذكّرتي، ورحتُ أقرأُ، بصوتٍ بالكاد تسمعه أذناي، ما خطّه قلمي اللّيلة الماضية:

سيدي شَمْهَروشْ:

الثلاثاء:

وصلتُ إلى محطّة القطار قبل موعد انطلاقه بحوالي السّاعة، وبقيتُ بداخلها أتفرّسُ الوجوه، وأحاولُ عبثاً سبرَ النفوس!

كنتُ من الرّكّاب الأوائل الذين صعدوا إلى القطار المنطلق من

مدينة فاس والمتّجه صوب مدينة مراكش، وكنت أول الدّاخلين إلى المقطورة.

وضعتُ محفظتي قُبالتي في المكان المخصّص للأغراض وجلستُ في مقعدي بمحاذاة النّافذة.

انطلق القطار مع تمام السّاعة الثّالثة زوالا وأربعين دقيقة، ووصل إلى مدينة مراكش مع تمام السّاعة العاشرة وخمسين دقيقة، بعد توقّف اضطراري دام ستّة وثلاثين دقيقة بمحطّة الرّباط المدينة.

وعلى امتداد وقت الرحلة غُصْتُ أستعيد تفاصيل زيارتي للعرّافة أمّ الطّيور، غير مهتمّةٍ بمن دخل المقطورة أو خرج منها.

كان ذلك قبل ثلاثة أشهرٍ تقريباً..

فبعدَ اقتراح من إحدى زميلاتي في العمل، وتحت وطأة البحث عن الخلاص الذي طال رجاؤه، تبعتها إلى حيّ عوينات الحجّاج بمدينة فاس، حيث تقطن العرّافة أم الطيور.

وعند باب منزل منزوٍ في نهاية زقاق ضيّق توقّفنا، فصاحتْ مرافقتي بأحد الأطفال:

- هل أمّك موجودة؟

وما سمع الطفل كلامها حتى دخل، وهو يصرخ بأعلى صوته:

- أمّي! أمّي! هناك سيّدتان عند الباب تسألان عنك.

- مَرْحبا بْضَيْفْ الله! مَرْحبا...

هتفت أم الطّيور من الدّاخل.

فقال الطّفل وهو يشير إلينا أن نلحقه:

- تفضّلا!

ولحقناه...

دخلنا على سيّدة في أواسط العمر، كانت ترتدي جلباباً أصفر، وتضع على كتفيها شالاً بنفس اللّون.

- مَرْحبا بْضَيْفْ الله.. مرحْبا بصْحابْ الحالْ.

توقّفتْ برهة ثم زعقتْ:

- التسليمْ لْرجال المكانْ.. التسليم أ لالّة مِرَة مولاتْ اللّونْ الا صفرْ...

فغمغمتُ ومرافقتي من بعدها:

- التسليمْ.. التسليمْ.. التسليمْ...

- اتبعاني!

هكذا أمرتنا أم الطيور فدلفنا معها إلى غرفة صغيرة.

- اجلسا!

وقبل أن نجلس وضعتُ ما جلبناه معنا أمام قدمي أمّ الطّيور، وقلتُ:

- هذا صْوابْ الزيارة أ لالّة أمّ الطّيور.

- الله يخلف على بناتْ الجوادْ!

وكانت مرافقتي قد اقترحت عليّ أن نأخذ معنا قالبين من السّكر، وأوصتني أن أمنحها المال الذي تطلبه كواجب للزّيارة، دون مناقشة.

- من منكما تريد قراءة حسابها؟

- صديقتي! ردّتْ مرافقتي وهي تشير إليّ بيدها.

- ما اسمك؟ وما اسم والدتك؟ سألتني أمّ الطّيور وهي تركّز نظراتها باتجاهي.

أطلعتُها في الحين باسمي وباسم والدتي، فتناولت مجموعة من أوراق

اللّعب بين يديها، وشمعة صفراء، وقطعة ثوب خضراء.

وبمهلٍ فَرَدَت قطعة الثّوب على الطّاولة التي كانت تفصل بيننا وبينها، ووضعت الشّمعة المنطفئة في وسطها، وراحت تخلط الأوراق مع بعضها، وهي تقول:

- بسم الله الرّحمن الرّحيم.. التسليم!

- التسليم! دمدمتُ بارتعاش.

- التسليم أ رجال الله.. التسليم أ لالّة مِرَة!

- التسليم!

- اعقدي النيّة! اطلبي التسليم!

اعقدي النيّة! اطلبي التسليم!

اعقدي النيّة! اطلبي التسليم!

- التسليم!

وبين فينة وأخرى كانت أمّ الطّيور تُصدر أصواتاً مختلفةً، ميّزت منها صوتَ الدّجاج، وصوتَ البطّ، وصوتَ الغراب، وصوتَ الهدهد!

- قلبك.. تْخمامك.. ما أتاك الله!

قلبك.. تْخمامك.. ما أتاك الله!

قلبك.. تْخمامك.. ما أتاك الله!

صَمَتَتْ فجأة، وتوقّفت عن إصدار الأصوات الغريبة، فطفقت توزّع الأوراق فوق قطعة القماش وتضعها جنباً إلى جنب، حتى صارت تشكّل ما يشبه لوحة مستطيلة أمامها، وبعد لحظات صاحتْ بنبرة أسف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! لا حول ولا قوة إلا بالله!

ثمّ بحركة عصبيّة لملمت الأوراق، وراحت تخلطها وتفردها مجدداً.

بَقِيَتْ واجمة لبعض الوقت، قبل أن تصيحَ وهي ترمقني بطرف عينيها:

- عندك مسّ.

ثم أضافت:

- التسليم أ رجال الله! التسليم أ لالّة مِرَة!

نظرتْ إليّ مرافقتي وقالت تخاطبُ أمّ الطّيور نيابة عنّي:

- لقد تزوّجتْ صديقتي منذُ ثلاثة أشهر، وما تزال على حالها بِكراً. وكلّما همّ بها زوجها إلاّ وظهر أمامها شبح أسود يمنعها من تسليم نفسها له.

- ولن يدعها بسلامٍ إلاّ إذا أخرجته.

- وكيف السّبيل إلى طرده؟ سألتُها بقلب واجفٍ.

- خلاصُكِ عند سيدي شمهروش.

صاحت بي أمّ الطيور، قبل أن تحيطنا علماً، وبشكل دقيق، بكل ما يتعلّق بسيدي شمهروش، ومحكمته، ومكانها، ويوم انعقادها، ومساعديه، ومستلزمات الزيّارة، وطقوسها...

وقبل انصرافنا أوصتني، وبشدّة، أن أنتظر قدوم البشير قبل القيام بالزّيارة إلى سيدي شمهروش. ولمّا سألتها عن ماهية البشير، أجابتني قائلة:

- البشير رجل ورعٌ، تقيٌّ، زاهدٌ، سيزورك في المنام، وتلك هي البشارة.

- وهل سيطول انتظاري؟

- بحسب ما تقرّره محكمة الجن.

كعادتي تأخّرت قليلاً في النّزول تجنّباً للزّحام والتّدافع والفوضى التي تجتاح القطار فجأة. ولمّا رأيتُ أن وقت الانصراف صار مناسباً غادرتُ القطار، ومن باب المحطّة إلى سيّارة الأجرة، ومنها إلى النُّزل، حيث كنت قد حجزت مسبقاً.

الأربعاء:

من محطّة سيدي ميمون، غير بعيد عن جامع الفنا، ركبت أوّل سيّارة أجرة كانت ذاهبة إلى قرية إمليل، عبر طريق أسني.

كانت الطّريق عبارة عن منعرجات لامتناهيةٍ وسط الجبال، وعلى امتداد سبعين كيلومتراً تقريباً.

وبحسب ما فهمتُ من الحديث الذي كان يدور بين بقية الرّكّاب - كانوا جميعاً فرنسيين - فإنّهم كانوا ذاهبين إلى زيارة المنطقة وتسلّق قمة جبل توبقال.

وبعد ما يربو على ساعة ونصف من المسير توقّفت بنا سيّارة الأجرة عند حاجز أمني، على أعتاب قرية إمليل.

- جهّزي بطاقتك الوطنية يا ابنتي!

صاح بي السائق، قبل أن يخاطب البقيّة:

- Préparez vos passeports !

ثم عاد ليخاطبني بصوت منخفض:

- لقد تغيّرت المعايير بعد حادثة مخزية كانت قد حصلت هنا قبل مدّة.

***

كانت قرية إمليل تطرد عنها بقايا ليلة ربيعيّة، وتستعدّ لاستقبال الوافدين إليها. وكان نسيم بارد يبسط سطوته على أجوائها، وشعاع شمسي يقبّل خدّها.

مفتونةً بجمالها قرّرت أن أقوم بجولة صغيرة قبل أن أستفسر عن مكان النّزل الذي سأقيم فيه.

وعلى امتداد القرية الهادئة اصطّفت محلاّت لبيع الجوز واللّوز وأملو وأركان والزّيوت العطريّة. ومحلات لبيع الزّرابي المحليّة الصّنع والمنتوجات الصّوفية. ومحلاّت لبيع وكراء كل ما تستلزمه رياضة تسلّق الجبال من أحذية خاصة، وخود، وحبال، وأحزمة، وقفازات، وسترات خارجيّة، ومصابيح، ونظّارات، وخيام، وخرائط، ومجارف، وحلقات معدنيّة، ومطارق، وسكاكين، وبكرات، وأوتاد...

- مرحبا أختي! هتف صوت من خلفي.

استدرت ناحية الصّوت، فوقع بصري على رجل أربعينيّ كان يدنو منّي مفترّ الثّغر عن ابتسامة عريضة.

- مرحبا!

- أنا **المحجوب**، مرشد سياحيّ مستعدّ لمرافقتك وتقديم المساعدة لك.

- مرحبا أخي المحجوب. في الحقيقة أنا بحاجة إلى مرشد سياحيّ معتمد.

- وأنا تحت أمرك.

ردّ المحجوب وهو يقدّم إليّ بطاقته المهنيّة.

تَفَرَّسْتُها وقلتُ:

- ما ثمن الخدمة لو سمحتَ؟

- بالنسبة لأسعار الجولة بالبغل يا أختي: الجولة إلى الشلاّلات ٣٠ درهم. والجولة إلى ضريح سيدي شمهروش ١٥٠ درهم دون مبيت، و٢٠٠ درهم في حال المبيت. والجولة إلى ملجأ جبل توبقال: ٤٠٠ درهم.

- أنا هنا لزيارة ضريح سيدي شمهروش. لكنّ هذا لا يمنع من القيام بجولة إلى الشلاّلات.

- أفهم من كلامك أنّك ستقومين بزيارة ضريح سيدي شمهروش غداً الخميس، وزيارة الشلاّلات اليوم؟

- تماماً.

- وأنا تحت أمرك أختي. هل حجزتِ مكان الإقامة؟

- **نعم. بنُزُل جبل توبقال.**

- دعيني أدلّك عليه، وسأترك لك رقم هاتفي، اتّصلي بي عندما تريدين الصعود إلى الشلاّلات.

- حسناً اتّفقنا.

***

ولم نكدْ نخطو خطواتنا الأولى ناحية الشلاّلات حتى غطّتنا أشجار الجوز بظلالها، ومجاري المياه بخريرها، والعصافير بشدوها.

كان المحجوب يسبقني بخطوات، وكنت أسير في إثره، وقد فضّلت أن أسير صوب الشلاّلات على قدميّ، بعدما علمت أنها تبعد بحوالي الأربعين دقيقة فقط عن مركز القرية.

وعلى امتداد مسيرنا كنّا نصادف بائعي المجوهرات والحليّ والزّعتر الجبليّ، ونساءً وأطفالاً مع قطعان من الماعز، وزواراً عائدين إلى القرية...

- هل أنتِ بخير؟ صاح بي المحجوب.

فأجبته بإشارة من يدي أنّني كذلك.

- وراء تلك الصخور يوجد الشّلال الكبير.

- جميل.

أجبته لاهثة، قبل أن أضيف:

- أنا بحاجة إلى جَدْي أو عنْزة سوداء للزّيارة.

- حاجتك عندي. بعد أوبتنا سآخذك لاختيار ما يناسبك.

وعلى مشارف الأصيل كان منظر الشلاّل مهيباً وباعثاً على كلّ معاني البهاء الأخّاذ، الهواء منعش، والسّماء صافية، والنّقاء بديع، وأجيج الماء يكتنف الأجواء.

جلستُ أمامه أرتشف عصير برتقال طلبه المحجوب من أجلي، فأنشأتُ أسترجعُ بعضا ممّا قالته لي أمّ الطّيور استعداداً ليوم غد، يوم الزّيارة.

- إنّ سيدي شمهروش هو سلطان الجنّ وقاضيهم. ومحكمته محكمة ربّانية، تعقد يوم الخميس لِفَضِّ النّزاعات بين الإنس والجنّ.

يستعين سيدي شمهروش بستّة ملوك آخرين للجنّ لمساعدته في مهامّه وَهُمْ: أبيض وأحمر ومذهّب وبرقان وميمون ومِرَة. أمّا سلطته فهي محدودة في الزّمن، إذ يحكم مرّة في الأسبوع، يوم الخميس. لذلك يتوجّب عليك القيام بالزّيارة في هذا اليوم. وبمجرّد دخولك إلى الضّريح رددّي ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله..

أنا بين يديك يا سيدي شمهروش..

أنا بين يدي أعضاء محكمتك: أبيض، وأحمر، ومذهّب، وبرقان، وميمون، ومِرَة.

وستُصرعين من فورك.

هذا ما يحدث مع الشّخص الممسوس بالجنّ، وعندئذ تبدأ أطوار المحاكمة. لكن وقبل ولوجك إلى مقام سيدي شمهروش هناك طقوس يجب أن تقومي بها وتلتزمي بها بالحرف الواحد:

أولاً: تقديم ذبيحة لسيدي شمهروش، ويشترط أن تكون جدياً أو

عنزة سوداء.

ثانيا: زيارة المقامات.

ثالثا: الاغتسال من ماء العين الأولى - دون ترك أي جزء من الجسد بدون اغتسال - مع الحرص على عدم تسخين الماء.

تذكّري هذا جيداً: لا تُسَخِّني الماء!

رابعاً: الشرب من العين الثّانية المجاورة للضّريح.

لقد حدث الكثير قبل وصولي إلى هذا المكان، وإلى هذه المرحلة من رحلة البحث عن الخلاص.

في البداية كنتُ متحمّسة لزواجي من الرّجل الذي أحببت، وكنت في غاية البهجة والسّرور، مع القليل من التوجّس الطّبيعي الذي يصيب جميع النّساء قبل ليلة الزّفاف.

وفي اللّحظة التي كان فيها كلّ شيء يسير على نحو جيّد، برز أمام ناظريّ شبح أسود مفزع!

لحظتها دفعت زوجي بعنف، وخلّصت جسدي منه، وانكمشت على نفسي مرتعدة الأطراف. وقد تكرّر معي الأمر في كل مرّة كان يدنو فيها منّي لمطارحتي الفراش!

بادئ الأمر كانت نظرته متفهّمة للمشكلة، لكنّها لم تعد كذلك بعد رفضي زيارة الطّبيب، واختياري اللّجوء إلى عالم الرّوحانيات.

- لا أبارك ما تنوين القيام به. أنت تعانين من تشنّج مهبليّ حادّ، ومن اضطراب في العلاقة الجنسيّة، وعلينا أن نزور الطّبيب.

وقد يعود السّبب أيضا إلى ما ترسّخ في ذهنك، وأنت طفلة، ثمّ وأنت مراهقة، عن العلاقة الجنسيّة بين المرأة والرّجل، وبشكل خاصّ في ليلتهما الأولى؟

- أريد فرصة واحدة فقط، وبعدها سأقبل بكل ما تراه مناسباً، حتى لو كان فراقنا. أنا عندي مسّ، وخلاصي عند سيدي شمهروش.

لماذا أنا مصرّة على طرق الباب الرّوحاني، وتجاهل الباب العلمي؟

لم يحدث أن كنت بهذا الغلوّ من قبل!

ولم يحصل أن تقبّلت أمراً كما أتقبّل الآن ما أملته عليّ أمّ الطّيور. لا أنكر طبعاً أنّني شعرت ببعض القلق أوّلًا، غير أنّني سرعان ما تخلّصت من أوزاره ووضعتها.

لماذا أنحاز إلى سلك درب يتعارض مع ما تعلّمته في المدرسة

والثانوية والجامعة؟

شابّة متعلّمة في مثل وضعي يخلُقُ بها أن تأخذ بقول الطّبيبة لا العرّافة!

ما هو الباعث الحقيقيّ على هذا الشّعور والاقتناع؟

على كل حال، أنا مؤمنة كل الإيمان بأن خلاصي عند سيدي شمهروش، وليس عند أحد غيره.

هذه هي إرادتي.

وأنا قانعة بها..

وأحترمها..

لأنها، وبكل بساطة ووضوح، تبعث في نفسي الارتياح.

الخميس:

توضّأتُ وصلّيتُ صلاة الاستخارة، فالتحقتُ بالمحجوب عند باب النُّزل. وكان قد أحضر معه البغل، والجَدْي الذي اشتريت منه بالأمس.

- هل أنتِ مستعدّة؟

- تمامَ الاستعداد.

- أحسنتِ اختيار اللّون، فسيدي شمهروش يحبّ اللّونين الأخضر والأبيض.

- إن شاء الله يقضي حاجتي.

- بحول الله وبركة سيدي شمهروش حاجتُكِ مقضيّة.

وكنتُ قد لبستُ جلباباً أخضر اللّون، ووضعتُ على كتفي شالاً أبيضاً، وعلى رأسي غطاءً بنفس لونه.

أمسكَ المحجوب بلجام الدابّة، واعتليتُ ظهرها بوجل غير خاف.

وعند أوّل الطّريق الصّاعدة إلى الجبل أوقفنا حاجز أمنيّ. طلبوا بطاقتي الشّخصيّة، بينما اكتفوا بتبادل تحيّة الصّباح مع المحجوب، ثمّ أفسحوا المجال أمامنا للمضيّ قدماً.

وعلى وقع حوافر البغل وثُغاء الجدي، بدأنا رحلتنا عبر ممرّ صخريّ ضيّق بين الفجاج.

- المحجوب! كيف تمّ العثور على مقام سيدي شمهروش؟ سألته بدافع من الفضول.

فردّ قائلاً:

- حصلَ ذلك يا أختي قبل زمن بعيد، حيث كان سيدي شمهروش يأتي لمنزل أحد رجال القبيلة ممسوخاً على هيئة كلب أسود، فينام قريباً من الحصان في الإصطبل. وما كان من الرجل إلاّ أن ضيّفه واعتنى به. وذات فجر قام صاحب المنزل للصّلاة، فحدث أن أبصر الكلب راكباً فوق الحصان! توارى الرّجل عن الأنظار وتبعه إلى أن وصل إلى دوّار أرمد، حيث التقى بأصدقاء آخرين، وجعل يشاهدهم وهم يلعبون بالخيل.

التقط المحجوب أنفاسه قليلاً، ثمّ زاد يقول:

- ولمّا عاد الكلب طلب منه صاحب المنزل أن يكشف له عن هويّته الحقيقية. وفي تلك اللّحظة طلّق سيدي شمهروش هيئة الكلب، وظهر بلباسه الملكي وتاجه، وخاطب الرجل قائلاً: **لقد لقيتُ منك الإحسان والرّعاية والخير، ونظير ذلك سأريك المكان الذي أعقد فيه محكمتي.**

- عجيب! ومتى ينعقد موسم سيدي شمهروش؟

- ينعقد الموسم بدوّار أرمد يوم الخميس الموالي ل ٢٢ غشت، وهو يوم الذّبيحة، ويُختتم يوم السّبت الموالي.

وإذْ أنهى المحجوب كلامه عدنا للصّمت.

وبعد مسير دام زهاء السّاعتين والنّصف صاح بي:

- لقد اقتربنا.

رفعتُ بصري فلاحَ أمام ناظري مسجد صغير متواضع بقربه صخرة بيضاء كبيرة، يحلّق حولها سرب من الغربان، ويرفرف فوقها علمان، واحد أبيض وآخر أخضر، خمّنتُ أنّها مقام سيدي شمهروش.

تابعنا سيرنا بخطى حذرة، فاجتزنا نهراً صغيراً، ثمّ سرنا في طريق ضيّق، توزّعت على جانبيه دكاكين تعرض مستلزمات الزيارة من شمع وندّ وسكر...

- المحجوب! ما سرّ تلك الغرف؟ سألته بصوت خفيض، وأنا أشير إلى الغرف المنتشرة خلف الدّكاكين.

أوقف المحجوب لحظتها البغل ودنا منّي، ثم راح يقول:

- إنها مخصّصة للكراء، وهي للزّوار الذين يحكم عليهم سيدي شمهروش بالبقاء حتّى انتهاء عملية التّعافي، أو لقضاء مدّة الحكم.

ارتسمت على محيّاي علامات القلق، وتمنّيت في سريرتي ألاّ أضطرّ للبقاء فيها. بينما أكمل المحجوب قائلاً:

- وذلك المسجد الذي ترين هناك، بناه أحد الزّوار من مدينة فاس سنة ١٩٨٨. أمّا ذلك الجسر الذي بقي أمامنا لبلوغ الضريح، فبناه أحد الدراويش قبل تشييد المسجد بعشر سنوات.

***

وعند الطّرف الآخر من الجسر، استقبلنا أحد المشرفين على الضّريح بعبارات طافحة بالتّرحيب والدّعاء.

- سلّميه الجدْيَ يا أختي، وإذا سألكِ ماذا ستفعلين بالسّقط، قولي له أنّك تمتنعين عن أكل عارك، وبأنّك تتخلّين عنه.

فعلتُ كما أوصاني المحجوب، فطلبَ منّي المشرفُ أن أتبعه إلى مكان الذّبح.

كانت بقع الدّم تملأ المكان، وكانت الغربان تتقافز فوق رؤوسنا!

أمسكَ المشرف بقرنَيْ الجدي بين يديه، وراح يرشّه بماء الورد، وهو يدمدم بكلمات غير مفهومة. ثم أنشأ يدكّ الأرض، تارة بقدمه اليمنى، وتارة بقدمه اليسرى، وينثر عليها هي الأخرى ماء الورد.

- التسليم! اطلبي التسليم! همر بصوت مخنوق.

فهمست مرتجفة:

- التسليم! التسليم! التسليم!

وفي ثوانٍ معدودات صار الجديُ غارقا في دمائه.

- اتبعيني يا أختي! أمرني صوت من الخلف.

فتبعت صاحبه وتركنا الأوّل يباشر عمليّة السّلخ.

وبمعيّته زرتُ مقامَ الباشا حمّو، ومقام سيدي ميمون، ومقام لالّة عيشة، وأشعلتُ الشّموع فيها جميعاً. وكنت كلّما أشعلت واحدة إلاّ وسلّمت لصاحب المقام، ورجوته أن ينير حياتي ببركته.

أمّا المقامات فكانت تحيط بضريح سيدي شمهروش، وتتوزّع بين الصّخور، وكانت معظم هذه الصّخور إما سوداء اللّون بفعل دخّان الشّموع، أو حمراء ملطّخة ببقع دم الذّبائح.

وبعدما فرغت من زيارة المقامات سلّمني المشرف الثّاني سطلا من الماء، وهو يقول:

- ادخلي إلى ذلك المكان واستحمّي يا أختي. وبعدها ستشربين من العين الثّانية وتدخلين المقام.

وبحركة من رأسي أجبتُ نعم.

***

ولجتُ الضّريح بقلب خافق متعلّق بأهداب الأمل الأخير والكبير.

أجلتُ ببصري أستقصي معالم المكان.

أثاث متواضع يجلس عليه خمسة رجال يعزفون على النّاي ويكلّمون الدفوف، ومسبحات تتدلى على لوحات كتبت عليها الشّهادتان وأدعية واستغفارات، ومجمر متوسط الحجم ينثر دخّان بخور كثيف، وشموع مختلفة الألوان، وقطعة قماش خضراء طُرز عليها اسم سيدي شمهروش، وسجّادات للصّلاة، وعلامة على شكل قبر في العمق مغطاة برداء أخضر، وصندوق على يسارها للنّذور والعطايا.

تصاعدت رائحة البخور في الأرجاء أكثر وأكثر...

وزادت حدّة العزف والقرع..

خفقَ قلبي..

ارتختْ أطرافي..

نزعتُ غطاء رأسي..

فُكّتْ عقدة لساني..

وصرختُ بأعلى صوتي:

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله..

أنا بين يديك يا سيدي شمهروش..

أنا بين يدي أعضاء محكمتك: أبيض وأحمر ومذهّب وبرقان وميمون ومِرَة.

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله..

أنا بين يديك يا سيدي شمهروش..

أنا بين يدي أعضاء محكمتك: أبيض وأحمر ومذهّب وبرقان وميمون ومِرَة.

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله..

أنا بين يديك يا سيدي شمهروش..

أنا بين يدي أعضاء محكمتك: أبيض وأحمر ومذهّب وبرقان وميمون ومِرَة.

توقّف كل شيء عن الحركة، وساد صمت مطبق ابتلع كل الصّخب الذي كان!

لحظات..

ثم تبدّل منظر المكان من حولي، فلم أعد أبصر إلاّ نوراً خافتاً يتسرّب إليّ من كل الجهات! نظرت إلى الأسفل فلم أجد الأرض التي كانت تحملني! حملقتُ إلى الأعلى فرأيت السماء ملبّدة بغيوم سوداء كالحة!

ومن خلف حجب الموقف المبهم الذي كنت أعيش تفاصيله بقلب مغتمّ، ظهرت غربان هائلة العدد، فطفقت تحوم حولي وتنعق بطريقة هستيرية، كأنّها كانت تودّ قول شيء لم أفهمه، ممّا زاد من هياجها وضاعفه!

لحظات..

ثمّ حلّقت مبتعدة، وبالضباب الذي اجتاح الأرجاء امتزجت وتماهت.

تنفّستُ بعمق نسمات هواء بارد، وأنا بالكاد أستطيع رؤية قدماي، قبل أن يتناهى إليّ وقع أقدام حصان! ومع تصرّم الثواني تضاعف عدد الحوافر، فكان الصّوت يشتدّ تارة، ويخفت تارة أخرى، دون أن أتمكّن من إبصار مبعثه!

بقيتُ على حالتي مشدودةً إلى الجلبة خلف لثام الضّباب،

والتوجّس إبر مسمومة تخزّ قلبي.

ماذا خلف الضّباب الكثيف؟ تساءلتُ بصدر منقبض وأعصابٍ متوتّرةٍ.

فجأةً هبّت رياح قويّة تطايرت لقوتّها كتل الضّباب وانجلت، فوجدتني وجهاً لوجه أمام سبعة أشخاص غرباء، يتدثّرون بألبسة مختلفة الألوان تخفي وجوههم وتغطي سائر أجسادهم، ويجلسون على عروش غريبة الأشكال، ويضعون على رؤوسهم تيجانا متفاوتة الأحجام!

قدّرت أن من يتوسّطهم، صاحب الرّداء الأخضر والتّاج الأكبر حجماً، هو سيدي **شمهروش**، وأن صاحب الرّداء الأبيض هو **أبيض**، وصاحب الرّداء **الأحمر** هو أحمر، وصاحب الرداء الذهبيّ هو **مذهّب**، وصاحب الرّداء الأزرق هو **برقان**، وصاحب الرّداء الأسود هو **ميمون**، وصاحبة الرّداء الأصفر هي **مِرَة**.

بتسليم تامّ وخشوع صحتُ:

- بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله. أنا بين يديك يا سيدي شمهروش. أنا بين يدي أعضاء محكمتك: أبيض وأحمر ومذهّب وبرقان وميمون ومِرَة.

فنطق صوت يقول:

- **ونحنُ كذلك، كما نسجَ خيالُكِ وابتغى.**

انتهت.

وإذ فرغتُ من قراءة القصّة، انتصبتُ واقفاً، فارتديتُ ما عثرتُ عليه بقربي من ثياب، ووضعتُ محفظتي على ظهري، ثمّ خطوتُ خارجاً.

- إلى أين أنتَ ذاهبٌ دون إفطار؟ صاح بي ابني يسألني.

فرنوتُ إليه بعينين هادئتين لأخفي ما ألمّ بي، وقلتُ له بنبرةٍ وشت بهدوئي المصطنع:

- أنا في طريقي...

ارتخت أسارير وجهه، وابتسمَ كأنّه كان يتوقّع إجابتي، ثم قاطعني قائلاً:

- النّص مجدداً! لم يمضِ زمن طويل على أوبتك من مرّاكش وجبل توبقال؟ ألا ترى أنّك بحاجة إلى قليل من الرّاحة؟

طأطأتُ رأسي تجنّبا لنظراته، وقُلتُ وأنا أنصرف:

- تلكَ قصّة فرغتُ منها، وهذه رواية جديدة عليّ أن أتبع خيوطها، وربّما أعود إلى مرّاكش ومنها إلى واحات الجنوب الشّرقي.

...

توقّفت حافلة النّقل الحضري، فأخذ الرّكّاب يتفرّقون رويداً رويداً، كلّ إلى وجهته المنشودة. أمّا أنا فكانت كلّ ربوع الجزء العتيق من مدينة فاس غايتي.

- سأزور **المْعَلَّمْ رشيد الخرّاز** أوّلاً لإتمام ما بدأناه سابقاً.

قلتُ هذا بصوت مسموع، ثمّ مشيتُ بخطى وئيدة منغمساً في ذاكرة الأزمنة البعيدة، مستغرقاً في استبطان الذّات، أدوّن أسماء الدّروب والأزقّة، وأقتفي أثر النّص الجديد.

الفصل الأوّل:

توضيح:

أيّها القارئ(ة) العزيز(ة) لقد تمّ تأجيل «الفصل الأوّل» لاعتبارات تقنية.

الفصل الثّاني:

١

- دَمّاحة! لا تبتعدي كثيراً!

صاحت بي أمّي وهي تُشَيّعُني بنظراتها المتوسّلة، فأردفتْ محذّرةً:

- لا تطاردي السّراب يا صغيرتي! كفى شقاوة!

- **(وماذا سأفعل إذا لم أطارد السّراب!)**

كَتَمْتُ ردّي، ولوّحت لها مبتسمةً، قبل أن أهشّ على قطيع الماعز بعصاي وأصيح به بفرحٍ:

- إلى المرعى قبل أن يشتدّ الحرّ! هيّا أسرعوا!

سِرنا وسط الواحة يطوّقنا شدو العصافير، وتحفّنا ظلال جدوع وسعف النخيل المنغرسة جذورها عميقا في قرارة الأرض، ويلُفّنا خرير الماء المتدفق من خلال السواقي.

يرتفع ثغاء تيس ومعزة هنا..

وثغاء جدي صغير هناك..

فتنبسط سريرتي، وتدبّ في أوصالي أنفاس نسمات الحياة، وتستيقظ عرائسها لتقبّل همس النّدى وتعانق تنهّدات الصّباح البهيّ وهَيْنَمات النسائم الرّقاق.

بين فينة وأخرى ينفلت فرد من القطيع أَغْوَته مفاتن نبات الذرة أو البرسيم المنتشرَين على امتداد الطريق الذّاهب إلى المرعى، فأمنعه من تجاوز جدران البساتين الطينية بِصَيْحة، أو تصفير، أو حجر إذا تمادى في غيِّه.

كلّ شبر في الواحة محميّ حتى بغياب صاحبه، ولا تطاول على الحدود، ولا انتهاك للحرمة.

الواحة للجميع، والجميع في خدمة الواحة.

هذا أوّل الدّروس وأهمّها على الإطلاق، وقد تعلّمنا ذلك من النّخيل التي تظلّل بفيئها أشجار الزيتون واللّوز والرّمّان، والتي بدورها تحمي المزروعات. وبطريقة عكسية يضمن الغطاء النباتي في الأسفل للأشجار التزّود بالماء على مدار العام، ويوفّر لها المواد العضوية وينعش جذورها.

***

بلغتُ أطراف الواحة، حيث اختفت البساتين وظهرت الفسحة التي لا تعود ملكيتها لأحد، فقلّ منسوب الرّقابة والكبح الذي فرضته على الجميع منذ انطلاقنا، وتركت الحريّة للقطيع أن يبحث عن قوت يومه بين النُّحوت التي خلّفتها العوامل الطبيعية على وجه الأرض منذ الأزل.

جلستُ فوق صخرة قريبة وغمغمتُ محدّثة نفسي بانتشاء:

- حان وقت فرض الهدوء وبَسْطه.

انتظرتُ دقيقتين تقريبا أستجمع قواي، فانتصبت واقفة وعلى سيّدة القطيع الأولى ناديتُ:

- عَيُّوش! عَيُّوش!

فانثنت إليّ بعينين هادئتين وعادت تفتّش عن رزقها.

ثمّ على كبير القطيع بالنّبرة عينها:

- بَلالَة! بَلالَة!

رفع رأسه، فأصدر صوتا ألِفته.

- الوضع تحت السّيطرة إذن.

هتفتُ باعتداد وأنا أُثبّتُ الشّاشية فوق رأسي جيداً، فأشحتُ ببصري بعدها ناحية الأعلى، وقلبي معلّق بالمشهد الذي ينتظرني هناك.

لقد تطلّب الأمر وقتاً طويلاً لأكتشف سحر الوقوف على أكتاف الوادي الذي يحضن الواحة التي وُلِدْتُ فيها وآبائي وأجدادي...

كنتُ في بداءة الأمر أكتفي بالجلوس قريبا من القطيع أو أتعدّى ذلك بقليل، أحفر حفرة، أو أفتّش عن عشّ، أو أطارد فراشة إذا وجدت، إلى أن حدث ذات يوم واختفى جدْي صغير.

في كل مكان فتّشت عنه منزوعة الرّاحة، قبل أنْ أنتبه إلى أنَّ أمّه تحلق باستمرار باتجاه الأعلى.

- هل يعقل أن يكون قد تسلّق الجرف؟

تَساءَلْتُ باستنكار ودهشة.

- إنّه من سلالة خُلقت لتتّسلّق، لا غرو أنّه تبِع فِطرَتَه الأولى.

قلتُ وقد طلّقت شكّي السابق، فسعيتُ مصدّقة نداء الأم الكسيرة الفؤاد على غياب صغيرها.

بعد القلق الذي سبّبه لي اختفاؤه كنت عاقدة العزم على معاقبته، بيد أنّني سرعان ما غفرتُ له صنيعه، وشكرته على الاكتشاف والهدية الجميلة التي لا تقدّر بثمن!

حملتُ الجدي المذعور على كتفي وعدنا أدراجنا بمشقّة بالغة، مشقّة النزول الأوّل.

ومنذ ذلك اليوم وأنا أتسلّق الجرف بشغف يتنامى كَرّة بعد أخرى.

***

المنحدر شديد..

والصّخور مسنّنة..

والتربة غير مستقرّة.

بخطى وئيدة بدأتُ رحلة التسلّق المشتهى، دون أن أغفل عن التوقّف لأخذ نفَس، ولتفقّد انتشار القطيع في الأسفل.

أخيراً..

أخيراً أصِلُ فينتفي رجع صدى العناء، وتختفي منازل الشقاء.

هنا..

هنا يلتقي الجزء الأعلى من العالم بالجزء السفليّ منه.

هنا بوّابة الصّحراء الكبرى، وبداية المدّ الأخضر.

هنا..

على تخوم التقاء الشّمال بالجنوب أقفُ.

أسيرُ بعد ذلك بخطى حذرة ومتعرّجة وسط الصّخور المنتشرة في الأعلى.

في هذا المكان أجدُ رَوْحاً من أسلافي، وباعثاً على القوّة والتّحدي ومجابهة عنف الصّحراء، وبصمة التعلّق بالخلود الذي يداعب وداعب خلجات الإنسان على امتداد الأزمنة الغابرة.

أتابعُ سيري باتجاه أحد الكهوف، حيث تنتشر أكوام من حجارة متماسكة، هي قبور تعود لعصور غابرة على الأرجح.

أصِلُ..

أتناولُ جرعة ماء..

وأدخلُ الكهف.

عمق الكهوف الجنائزيّة لا يتجاوز الأربعة أمتار، والنّور المتسرّب

إليها من خلال فتحات أبوابها الواسعة يضيء سائر أرجائها.

مفتونة بسحر المكان أتمدّد على ظهري وأتفرّس السّقف.

نقوش بأشكال مختلفة، لم تستسلم لصروف الدّهر بشمسه وقمره ونهاره وليله ومطره وريحه وسيوله. بكل جنوده لم تخضع له، ولم تطأطئ رأسها.

مشاهد القنص والحرث والحرب والأدوات المستعملة في ذلك، ورموز تعبيرية بدلالات عصيّة على الفهم، وحروف وكتابات غريبة، وأيادي ووجوه وكائنات بشرية، وأقواس ودوائر ومربّعات ومستطيلات ومثلّثات، وخطوط لولبيّة وخطوط مائلة وخطوط مستقيمية، وطيور وحيوانات مبالغ في طول قرونها وقوائمها...

لم أخشَ يوما من تجلّيات الموت الذي كان يحيط بي، وأنا أتنقّل من كهف إلى آخر. بقدر ما كنت أخشى من المآل الذي صارت إليه هذه البقعة من الأرض، وقد كانت تعجّ بكل أشكال الحياة، قبل أن تصير اليوم صحراء يتطاير نقعها مع هبوب الرّياح!

كثيرا ما تحدّث أبي عن توجّسه من زحف الرمال، وكثيراً ما أشار بأصابع مرتجفة إلى الجنوب وهو يقول:

من هناك ستأتي النهاية..

من هناك...

كان الأمل يحدوني دوما في العثور على نقوش جديدة، وفهم الرّسالة التي تركها السّابقون.

ماذا أرادوا أن يقولوا؟ وماذا تعني الرموز الغريبة؟

ولماذا رسموا الحيوانات تحديداً؟ هل خوفاً منها أم إعجاباً بها؟

أم أن المسألة تتعلّق بترك أثر والافتتان بالخلود فقط؟

ولطالما استغربت لماذا يتعلق الإنسان بهذا الوهم ودماء الفناء الحتمي تتدفّق في شرايينه!

أعود إلى مكاني الأوّل. أتفقّد القطيع مجدداً، الوضع تحت السّيطرة.

أبسطُ ذراعي.

أرى أمامي..

الواحة تنام بين أحضان الوادي.

تتزّين بخميل النضارة، وتنفي خضرتها اللّون الأصفر الذي يلتهم

الأجواء.

كالحيّة تتلوّى بكسل واطمئنان، ضامّة إلى صدرها الدّور والمسجد والمخْزَنَ الجماعيّ.

أتّجه ببصري جنوباً..

وتحت سِهام الخيوط المتلألئة الأولى لنور الشّمس المتدفّق بسخاء من خلف حجب وستائر الكون الشّاسع، يلوح المدى الذهبيّ المفتوح أمامي مثل بحيرة، تُحرّك الرياح المنبعثة من تجاويف مجاهيل الجنوب وجهها بين فينة وأخرى.

تتدفّق حبّات الرّمل صاغرة فتختفي كتبان كانت بالأمس منتصبة تتباهى بضياء لمعانها، وتنبثق من العدم أخرىّ!

هنا..

تتلوّن الحياة على أعتاب الصحراء وتتزيّن، كما تشتهي الشّمس والرياح والرّمل والنّجوم والقمر، في تحالف أزليّ يفرض التّقديس والمسايرة والخضوع!

هنا..

بسخاءٍ يمنح النّهار نصفه، الشّروق والبكور والغدوة والأصيل

والعشيّ والغروب، للنّاس والدّواب والطّيور. وبجبروتٍ يقهرهم بنصفه الآخر، الضّحى والهاجرة والظّهيرة والرّواح والعصر والقصر.

أمّا اللّيل هنا..

أمّا اللّيل، بكامل زينته ونجومه وقمره، من الشّفق حتى الصّباح، فحبيب مشتهى وزائر عزيز.

أتّجه ببصري شمالاً..

تلوحُ في الأفق جبال الأطلس الشّامخ.

الجبل يعانق الغيوم..

يقبّل وجه السماء الصّبوح..

ويرسل أشواقه الحارقة للصّحراء.

(الرياح رسول المحبّة بينهما)

الصّحراء متمنّعة..

تطلب الارتواء مهرا أبديّاً لها ولا تشبع!

الجبل ذكر.. والصّحراء أنثى.

الجبل كريم وشهم.. والصّحراء جافّة ومتعطّشة.

يرسل دموع مآقيه إليها، يستجديها الوصال والعطف والعناق.

(**الخَطّارات** في عمقِ الأرض رسول المحبّة بينهما)

تَقْبل عربون الوله، وبنهم تمتصّ بلورات الماء المنبعث من كبد الأرض.

وتقول له باستعلاء..

عندما أرتوي أسلّمك ناصية أمري.

ولا ترتوي!

هذا العشق المستحيل هو مَن أنجب الواحة، أنجبها هجينة تتدثّر برداء الخضرة وسط الشحوب، وبندى الخصوبة وسط الجفاف!

هذا العشق هو مَن ضمن البقاء لسلالتي على امتداد آلاف السنوات.

الواحة بنت الجبل والصحراء.

٢

وقفت دمّاحة عند باب الزّريبة، تستعدّ لمرافقة القطيع إلى المرعى، فتناهى إليها صوت المؤذّن من أعلى الصومعة يصيح بصوت أجشّ:

- يا أهل الواحة.. لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.

يا أهل الواحة.. لا إله إلاّ الله محمد رسول الله.

ظنّت للوهلة الأولى أن أحدهم غادر الحياة الدّنيا والتحق بالخالق تعالى، قبل أن ينتفي حَسْبُها لمّا أردفَ قائلاً:

- يا أهل الواحة لقد توقّف جريان ماء الخطّارة..

يا أهل الواحة إنّ شيخ الخطّارة يدعوكم للالتئام في المسجد.

أَغلقتْ باب الزّريبة بسرعة، وهَرعتْ باتّجاه المسجد.

سار أهل الواحة زُمَراً، في صبيحة نزع الخبر المفجع هدوءها

وخامر التوجّس سكينتها، باتجاه مبعث النّداء.

توسّط شيخ **الخطّارة** المجلس أمام المسجد، بجلبابه الصّوفيّ ولحيته البيضاء ووقاره الجليل، وإلى جانبه قعد شيوخ الواحة والفقيه. أمّا الصّغار فالتصقوا بأطراف أمّهاتهم، الملتحفات بلباسهنّ الأسود، من خلف صفوف الرّجال والشّباب.

قال شيخ الخطّارة بخشوع:

- اجعلوا الصّغار يتقدّمون، فَهُمْ شفيعُ غيثنا.. اجعلوهم يتقدّمون يا أهل الخير!

ثمّ استتلى، وابتسامة ودودة تعلو قسمات وجهه:

- تقدّموا يا أحبّتي واجلسوا بقربي! تقدّموا!

ومن بين الحشد خرج رجل يحمل رضيعاً، حتى إذا دنا من شيخ الخطّارة وضعه بين أحضانه الدّافئة، وتقهقر للوراء.

فغمغم الشّيخ وهو يقبّل الرّضيع:

- بسم لله الرحمن الرحيم.. بسم الله الرحمن الرحيم.

قبل أن يصيح بالجمع بنبرةٍ فيها اطمئنان وأمل:

- ما دام بيننا هؤلاء الملائكة فلا تخشوا شيئاً ولا تقنطوا. قال تعالى «ولا تيأسوا من روح الله إنّه لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون» صدق الله العظيم.

فهتف أهل الواحة وعيونهم متعلّقة به:

- صدق الله العظيم.

تنحنح شيخ الخطّارة لتنقية صوته، ثمّ رفع بصره صوبهم، وقال:

- لقد توقّف ماء الخطّارة عن الجريان، ويلزمنا معالجة المشكلة بأسرع ما يكون، حتى نستأنف حياتنا بشكلها الطّبيعي.

فصاح أحد الشّباب، وقد دبّ الحماس في قلبه:

- ونحن عند إشارتك يا شيخنا..

- وهذا هو المضمون فيك يا بنيّ وفي أترابك. بارك الله فيكم جميعا، وجعلكم في خدمة الواحة وأهلها.

- آمين يا ربّ العالمين.

هتف فقيه المسجد وقد بسط أكفّه تحت رحمة السّماء.

همّ شيخ الخطّارة بالنّهوض، فهرع إليه شابّان، أخذوا عنه الوليد

وساعدوه على الوقوف.

وما انتصب واقفاً حتى تبدّلت لهجته واصطبغت بالجدّية والعزم:

- سنبحث عن مكمن الخلل، سنتأكّد أوّلاً من فجوات التّهوية، ومن منبع الخطّارة ثانياً.

وبينما ران الصّمت في الأجواء، زاد شيخ الخطّارة يقول:

- إذا كان المنبع هو من جفّ فلا حول لنا ولا قوّة. أمّا إذا كانت المشكلة في قناة الخطّارة، فمعلوم ما يتوجّب علينا فعله، وسنتصرّف الآن بناءً على هذا الافتراض.

ثمّ مستدركاً أضاف:

- وفي كلتا الحالتين لا نتوقّفوا عن التضرّع إلى الله تعالى، ولا تتأخّروا عن فعل الخير، ولا تهملوا الحفاظ على ما بحوزتنا من ماء، وتخصيصه للشّرب وتوريد الماشية والدّواب فقط.

(وكان شيخ الخطّارة يقصد ماء الصهريج المتجمّع عند طرف الواحة الشّمالي.)

كفّ لحظة بعد ذلك يستردّ أنفاسه، وقال:

- سينبثق من هذا الجمع المبارك نفر يتفقّد فجوات التّهوية،

ويحدّد المكان الذي توقّف فيه الماء عن التدفّق، لمباشرة عملية الإصلاح بعد ذلك.

وفي لمح البصر تقدّم عدد من الرّجال.

أشار شيخ الخطّارة بسبّابته إلى أربعة منهم، وصاح:

- خذوا ما يلزمكم من دوّاب وماء وطعام، وانطلقوا بلا إبطاء!

فقال واحد منهم بعزم ثابت:

- حالاً يا شيخنا.

وعاد ليخاطب الصّغار بنبرة هادئة:

- وأنتم يا قرّة العين لا تهتموا بأمر القطعان اليوم، ستبقى في الزرائب والحظائر.

فحرّكوا رؤوسهم دلالة الفهم، بينما أردف موجّهاً:

- ابقوا مع الفقيه هنا في المسجد، ورتّلوا ما تيسّر من القرآن. نفعنا الله ببركتكم وأزاح عنّا كربتنا.

وقبل أن ينفضّ الجمع رفع شيخ الخطّارة أكفّه إلى السّماء وقال

بضراعة وعينين مغمضتين:

- اللّهمّ اسق عبادك وبهائمك

ومن بعده ردّد الجميع بصوت عال:

- اللّهمّ اسق عبادك وبهائمك
- وانشر رحمتك
- وانشر رحمتك
- وأحي بلدك الميّت
- وأحي بلدك الميّت
- اللّهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً
- اللّهمّ اسقنا غيثاً مغيثاً
- وصيباً نافعاً غير ضار
- وصيباً نافعاً غير ضار
- اللّهمّ اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين
- اللّهمّ اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين

- سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين.

***

دلف الفقيه إلى المسجد، فدخل الصّغار في إثره يتدافعون.

وبحماسٍ بادٍ تناولوا ألواحهم وصدحوا بأعلى حناجرهم بالذّكر الحكيم.

وبين فينة وأخرى كانت تصل إليهم صحون التّمر واللّوز. يتوقّفون للأكل، ثم يستأنفون التّلاوة بقلوب منشرحة وبطون ممتلئة.

أمّا العجائز فقصدن من فورهنّ ضريح الوليّ عند الطّرف الغربي للواحة، لإشعال الشّموع عند قبره وطلب العون والمدد.

٣

لم يكن في يوم من الأيام الوصول إلى الماء في هذا الجزء من العالم بالأمر الهيّن أو اليسير. ولضمان التزوّد بهذه المادّة الحيوية بنى أسلاف دمّاحَة نظاما للسّقي فريداً من نوعه أسموه الخطّارة. وقد حفروا سلسلة من الآبار تمتدّ على مسافة عدّة كيلومترات، تنطلق من مصدر الماء عند الجبال وتنتهي عند الواحة.

هذه الآبار ترتبط ببعضها بواسطة قناة تحت الأرض، وتشكّل في الأعلى فتحات للمراقبة، وللتّهوية، ولإيصال بعض النور عند النزول إليها لتنقيتها وإصلاحها.

بعد مسير دام نصف يومٍ تحت وطأة الشّمس الحارقة، ارتأى الرجال التوقّف لأخذ قسط من الرّاحة، قبل مواصلة النّظر إلى أسفل كل بئر، لكنّ كبيرهم حدّو أبى ذلك قائلا:

- هناك أطفال ونساء وشيوخ بانتظارنا. لا توقّف ولا استراحة.

وما كان من البقيّة إلاّ أن أذعنوا لقراره صاغرين.

ليست المرّة الأولى التي يأتي فيها حدّو للقيام بمثل هذه المهمّة، على عكس مرافقيه، وعلى هذا الأساس اختاره شيخ الخطّارة ليكون على رأس الموكب.

وكما هو الحال في المرّات السابقة اجتاحه شعور بالقلق، شعور بالخوف، شعور بالارتباك، شعور بالضّيق والاضطراب.

ولطرد المشاعر المنغّصة ومداراتها، وتجنّب تمريرها للآخرين، انبرى يقول بصوت جهوري:

- هيّا يا رجال! دعونا نتفقّد باطن الأمّ الحبيبة. البِشارة في الأسفل...

وفي قرارة نفسه قال بتصميم:

- لن أتوقّف حتّى أرى الماء بأمّ عيني.

ثمّ أضاف بنبرة يقين:

- الخلل في قناة الخطّارة فقط، والجبل لن يتخلّى عنّا، والحياة

في الواحة باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

واصل الرّجال بعد ذلك سيرهم، ينظرون إلى الأسفل بقلوب واجفة وأطراف مرتعشة، ويرهفون السّمع مطاردين خرير المياه في تجاويف الأرض.

لا جديد!

يتابعون التقدّم..

لا جديد!

يتابعون..

لا جديد!

يتوقّف الأوّل..

يتبعُه الثاني..

يليهما الثّالث.

بينما يواصل حدّو التقدّم بمفرده، وهو يغمغم بصوت خافت واثق:

- لن يتخلّى عنّا الجبل!

يدبّ..

لا جديد!

يمشي..

لا جديد!

يسعى..

لا جديد!

يهرول..

لا جديد!

يعدو..

لا جديد!

...

ودون أن تتغيّر قناعته الأولى أو تتزحزح قيد أصبع، توقّف عند ناصية إحدى الفتحات.

أرهف السّمع..

استنشق الهواء المنبعث من جوفها..

ازدرد ريقه الجافّ، وصرخ بأعلى صوته:

- ماء.. الماء في الأسفل! الماء في الأسفل!

ثمّ زفر من أعماقه، ودمدم:

- قلتُ لكم لن يتخلّى عنّا الجبل أيّها الأوغاد!

فاستسلم للإغماء، وطيف ابتسامة يعلو وجهه الشّاحب.

٤

بعد أسبوعين من الجهد والتّعب المضني تمَّتْ تنقية قناة الخطّارة من الرّمال التي تسرّبت إليها بسبب العواصف.

وعند مصبّها وقف النّاس متحلّقين، يستمعون إلى شيخ الخطّارة وأمّارات الغبطة بادية على وجوههم.

- بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسّلام على أشرف المرسلين.. نحمد الله تعالى ونشكره على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى..

الحمد لله الذي أعاد الحياة إلى أوصال واحتنا، وجنّبنا هول الهلاك..

اللهمّ لك الحمد حتى ترضى..

اللّهمّ لك الحمد والشكر كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك..

أمّا بعد يا أهل الواحة الكرام:

لقد أرسلت كلّ عائلة في الواحة رجلاً عمل باسمها. ومن لم تستطع ذلك، لسبب أو لغيره، عيّنت من قام بذلك عوضاً عنها مقابل قدر من المال.

وسيراً على عادة أجدادنا وأعرافهم ستخصّص الحصص الأولى من المياه لريّ أراضي الفقراء وأراضي المسجد، تقرّباً إلى الله تعالى.

وما توقّف شيخ الخطّارة عن الكلام حتى صاح حدّو بصوتٍ ممزوج بالقهقهة:

- لابدّ من نحر أضحية بالمناسبة السّعيدة.

تعالت الصّيحات والزّغاريد ترحيباً بالفكرة، فسارع حدّو الخطى من فوره باتّجاه بيته لإحضار الذّبيحة، بينما كانت أطباق الكسكس تتقاطر تباعاً.

لم تذهب دمّاحة في إثره، كما فعل معظم أترابها، بل فضّلت البقاء في مكانها حتّى لا يضيع منها وتتحسّر عليه بلا نفع.

وفي غضون دقائق عاد حدّو يجرّ كبشاً كبيراً من قرنيه، تحفّه هتافات الحناجر الصغيرة.

وعند مجرى السّاقية طرح رجلان الكبش، وبخطى مزهوة اقترب حدّو منه يحمل سكّينه، حتى إذا تمكّن من موضع النّحر جيداً صرخ باعتداد:

- الحياة في الواحة باقية حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ومع تطاير قطرات الدّم تعالت الزّغاريد كَرّةً أخرى، وهشّت القلوب وبشّت.

انتظر شيخ الخطّارة قليلا حتّى توقّفت الذّبيحة عن التخبّط، فأشار بيده أن تُحْمَل إلى حيثُ ستسلخ، وتتوزّع أقساطها على المساكين والمحتاجين.

وبحركة متأنّية أزاح حجر مصبّ الخطّارة، وهو يردّد:

- اللهم صلّ وسلّم على سيدنا محمّد

اللهم صلّ وسلّم على الحبيب المصطفى

اللهم صلّ وسلّم على سيدنا محمّد

اللهم صلّ وسلّم على الحبيب المصطفى

اندلق الماء يقبّل وجنتي الأرض العطشى.

ومع خطواته الأولى امتزج بالدّم والتّراب وأوراق الأشجار، قبل أن يتدفّق صافيا متلألئاً يمنحُ برودة روحه للأرض، فتمتصّها بنَهمٍ وشوقٍ فاتحةً باستسلامٍ تامٍّ أذرعَ مسّامها.

ما ألذّ العناق بعد الفراق!

تقول حبّات التّراب لبلّورات الماء، وهي تتطهّر من أدران البعاد القاهر.

لا تُكَرِّر هذا المزاح الثقيل أرجوك!

تضيفُ متوسّلةً.

على الحياة أن تبقى في الواحة حتى يرثَ الله الأرض ومن عليها.

تقول، وقد أنشأ لهيب الظمأ يخفتُ في حشاشتها رويداً رويداً.

هبّت نسمات رياح استسلمت لها سعف النخيل، فأخذت تُخَرْفِشُ مبارِكةً طقس الزواج المقدّس، قبل أن ينضمّ للموكب المبارِكِ عصفوران وفراشة ونحلة.

- هناك قافلة قادمة من الجنوب باتّجاه الواحة.

هتف صوت قطع كل الحركة السّائدة.

٥

في غضون دقائق هرع الجَمْعُ باتّجاه المدخل الجنوبي للواحة، يرصدُ ظهور الطّلائع الأولى للقافلة.

والقافلة ضيف عزيز توارثت الواحة، جيلاً بعد جيلٍ، واجب استقبالها واحتضانها وحمايتها وتوفير الماء وكل ما تحتاج إليه أثناء عبورها للصّحراء ذهابا وإيابا.

ظهر أولاً دليل القافلة. لوّح لهم بيده من أعلى الجُرْفِ حيث مكان الصخور المنقوشة، فَرَدّوا تحيّته، قبل أن يبدأ موكب القافلة بالانحدار شيئاً فشيئاً، وعلى مهل.

فُسِحَ المجال أمام الجِمال لتسير صوب وسط الواحة، حيث مكان التوقّف وإعادة الانطلاق، في حين كانت عبارات الترحيب تنهال على الضّيوف من كل حدب وصوب.

وما أن بلغت القافلة مقصدها، حتّى تعاون أهل الواحة على وضع أحمال الجِمال، تحت توجيهات الطّاقم المشرف عليها.

...

استمرّ مكوث القافلة بين أهل دَمّاحَة **أربعة أيام**، وهي عادة متأصّلة تقريباً.

ثلاثة أيام خُصّصت للضّيافة، شربت فيها الجِمال وأكلت ووضعت أوزارها، ونام فيها الرّجال واستراحوا من عناء المشي.

بالمقابل دبّت حركة غير اعتيادية **بأكادير** (مخزن الواحة الجماعي)، وزاد الاهتمام بأمينه، على حساب شيخ الخطّارة الذي خرج من دائرة الاهتمام بعودة الماء إلى الواحة، حيث عمد النّاس إلى إخراج محاصيلهم من التّمر وتجهيزها للعرض والمساومة.

يتكوّن أكادير بالأساس من عدّة طوابق، وهو عبارة عن مبنى حجري مستطيل الشّكل يتوسّطه ممرّ طويل غير مسقّف، ويشتمل كلّ طابق على مجموعة من الحجرات بأبواب خشبية وأقفال من حديد، يتم الصعود إليها من خلال سلالم حجرية تصل إليها جميعاً.

ويوم أخير خُصّص للبيع والشّراء، تحوّلت فيه القافلة إلى سوق متنقّل يبيع صنوفاً شتّى من السّلع والبضائع، ويشتري التّمرَ

بالأساس.

وخلال اللّيلة التي سبِقت نهوض القافلة، واستئناف رحلتها، روى قائدها باعتداد وأسف في مجلس ضخم، احتضنته أسوار منزل جدّ دَمّاحَة، عن التّاريخ المشرق للتّجارة عبر الصّحراء قائلاً:

- لقد كانت التّجارة العابرة للصّحراء مزدهرة بشكل كبير، كما أنّ ظروف السّفر في الماضي كانت ملائمة أكثر من الآن، ولو أن أغلب النّاس يعتقدون العكس.

صمتَ لحظة ثمّ أضاف:

- لقد كانت تخضع بشكل رئيسي لإشرافِ الأعيان من ممثلي السُّلطات الدينية، على رأسهم شيوخ الزوايا، وللسُّلطات السياسية التي كانت تهتمّ بتنظيم مهنة التّكشيف والقيافة وقيادة القوافل وحراستها.

اعتدل قائد القافلة في مجلسه، فارتشف من كأسه قليلاً من الشّاي، واستتلى وسط صمت الجالسين:

- حدّثني جدّي أنّه سمع من يقول بأنّه في إحدى المرّات عبرت الصّحراء قافلة من

٢٥٠٠٠ شخصاً، منهم المسافر والتّاجر والحاج وغيرهم، و٥٠٠٠٠ من الإبل باتّجاه بلاد السّودان.

فعقّب أحد الحاضرين لحظتها قائلاً:

- إنّها مدينة متنقّلة!

استدار قائد القافلة صوبه، وقال مبتسماً:

- وهي بالفعل كانت مدينة متنقّلة يسهر على تسيير شؤونها عدد كبير من الرّجال، كلّ حسب ما تمليه عليه مهمّته.

ثمّ طأطأ رأسه، وتمتم في حزن:

- أمّا اليوم فلا يتجاوز عدد أفرادها الثلاثين، وعدد إبلها الستّين.

فصاح الفقيه، وهو شارد البصر:

- دوام الحال من المحال.

ثمّ أعقبه جدّ دمّاحة قائلاً:

- البَركة في الرّجال الذين يتنفّسون عشق الصحراء والتّجارة الحلال.

فردّ قائد القافلة، وهو يرنو إلى جدّ دمّاحة بنظرة امتنان:

- بارك الله فيك يا سيّدنا الجليل وفي أهل واحتكم.

وهنا سأله شيخ الخطّارة مغيّراً دفّة الحديث:

- عقدتم العزم إذن على مواصلة المسير؟

- غداً صباحاً بحول الله سنشدّ الرّحال.

- رافقتكم السّلامة وعين الرحمن التي لا تنام.

فصاح رجال من القافلة:

- آمين يا ربّ العالمين.. آمين.

- أعتقد أنّه من الأليق أن ندع الرّجال يخلدون للرّاحة.

قال جدّ دَمّاحَة ذلك، فهمّ بالوقوف، قبل أن يثنيه عن ذلك قائد القافلة قائلاً:

- لكن قبل ذلك أودّ أن أشكركم باسمي وباسم طاقم القافلة بأسره.

مال جدّ دمّاحة برأسه قليلاً للخلف، على حين واصل القائد كلامه، وهو يوزّع بصره على رجال الواحة:

- شكراً جزيلاً لكرمكم وحسن ضيافتكم. جعل الله إحسانكم في الميزان المقبول بحول الله تعالى.

ابتسم جدّ دمّاحة ابتسامة خافتةً، وقال:

- ما فعلناه واجب، وميثاق غليظ بين أسلافنا وأسلافكم.

فهتف قائد القافلة بصوت هادئ:

- رحمهم الله جميعاً، وأدام المحبّة بيننا وبين أبنائنا وأحفادنا.

- آمين.. آمين.. آمين.

غمغم الحاضرون.

٦

- دَمَّاحة! قومي يا صغيرتي الفطور جاهز!

صاحت بي أمّي بصوتها الرّقيق، فطلّقتُ مكان نومي وسعيتُ ناحيتها، حتى إذا دنوتُ منها قبّلتها من جبهتها، وعانقتها بعنفٍ طفيف.

فسألتني، وعلامات الاستغراب والدّهشة تعلو محيّاها:

- هل راودكِ حلم ما أثناء نومكِ؟

ضحِكتُ في وجهها ضحكة خفيفة، وقلت:

- في الحقيقة لا. غير أنّني شعرتُ برغبة جامحة في تقبيلكِ وتعنيقكِ، ففعلتُ.

- تعالَيْ يا روح أمّك! تعالي!

هَتَفَتْ بي، فطوّقتني بعناق طويل، وأمطرتْ وجنتيّ بوابل من القبل الحارّة.

بعد تناول طعامي قصدتُ الزّريبة، أترعتُ بابها، وفسحتُ المجال أمام قطيع الماعز للخروج.

وما خطوتُ بضع خطوات حتى جاءني صوت أمّي من الدّاخل:

- دمّاحة! أحضري لي معكِ بعض الأعشاب!

فأجبتها من فوري:

- سأفعل.

وانطلقتُ..

سِرْنا باتّجاه وسط الواحة، وقد تاقَتْ نفسي لرؤية القافلة وهي تستعدّ للرّحيل.

الصباح متحفّز مرتكز على نسمات باردة وتنهّدات بقايا الفجر، ورغاء الجمال التي كانت تحاول جاهدة مقاومة إخضاع الرّجال لها - وكان جليّاً أنّ نفسها طابت لمقامها في الواحة، وبأنّها تأبى مواصلة المسير والعناء- قبل أن ترضخ نهائياً بعد ليّ أنوفها.

- اضبطوا توازن الحمولات!

- إنّ كلّ خلل قد ينتج عنه تعثّر أحد الجِمال أو سقوطه.
- لا تجعلوا التسرّع يتسبّب في تبدّد القافلة وهروب الجِمال!
- ركّزوا!
- تمهّلوا يا رجال! تمهّلوا!

هكذا كان أفراد القافلة يتصايحون بينهم لحظة مروري بجوارهم.

ابتسم لي فرد منهم، فابتسمتُ في وجهه أنا الأخرى، ومَشَيْتُ من خلفِ قطيعي صوب وجهتنا.

ظلّ رغاء الجمال وصياح الرّجال يخفت كلّما ابتعدت عنهم باتّجاه المرعى، وبقيت ألتفت صوبهم بين لحظة وأخرى حتى غابوا عنّي نهائيا.

خالجني شعور بالإعجاب بهؤلاء الرّجال الشّجعان، وفكّرتُ مليّاً في قدرتهم على مواجهة أشباح الصّحراء، والسّيرِ تحت نير شمسها الحارقة، وقلّة مائها.

لا شكّ أنّهم من سلالة البدو الرّحّل الذين كبروا في كنف الصّحراء، وأنّهم يتوفّرون على عنصر التّجربة، متعوّدون على التّحرك بين الكثبان الرّمليّة.

ولا شكّ أنّ ارتباطهم بالتّرحال، وتجارة القوافل يمثّل عندهم عقيدة ثابتة وشغفاً لا يضارع.

ولاشكّ أنّ لهم القدرة على تحديد مواقع الآبار، وأماكن الرّعي، وترقّب العواصف، وتحرّك الرّمال، والسّير تبعاً لمواقع النّجوم واتّجاه الرّياح ومظاهر السّطح من نباتات وتربة...

ولاشكّ أيضاً أنّ لهم الحدس الكافي لتفادي الخطر، والقدرة على الحوار والتّفاوض من أجل ضمان أمن القافلة والبيع والشّراء.

فور وصولي تركتُ القطيع لحاله، ورحتُ أقتفي أثر الأعشاب البريّة بين صخور الوادي وشقوقه.

- **هذه ازهيرة.**

قلتُ بصوت فيه يقين، وأنا أقتلع النبتة من جذورها.

فأردفت بانتشاء:

- **وهذه كريشة غزال.**

ثم واصلت الاقتفاء بفرح جليّ:

- **وهذه عشبة الأرنب..**

وهذا شوك اللّبد

وهذا القرقاص

وهذا الحوذان

وهذه عين الجمل

وهذا التمير

وهذا العنصل

وهذا الشّيح

وهذا الحرمل

وهذا الرّمث

- وهذا **العجرم**. صاح بي صوت من الوراء.

اسْتَدَرْتُ لحظتها، فوقع بصري على رجل عرفته، كان رجل القافلة الذي ابتسم في وجهي لحظة مروري بمحاذاتهم.

- وهذا العجرم. أليس كذلك؟ كرّر سؤاله وهو يعرض النبتة أمام ناظريّ.

- بلى إنّه هو!

فصاح بي بنبرة خافتة:

- يبدو أنّك ماهرة في معرفة أصناف الأعشاب الصحراوية؟

- شيئاً ما.

- بل أنتِ متمكّنة من ذلك. تفضّلي!

قال ذلك، فسعيتُ ناحيته لأخذ عشبة العجرم منه، بينما بقي هو متسمّراً في مكانه لا يريمُ.

وجمتُ لحظة أمامه، لا يفصلني عنه إلاّ شبر، ثمّ قلتُ:

- أ لن تلحق بأصحابك؟

فندّت منه ابتسامة ماكرة، وقال بصوت خرج من أعماقه كالفحيح:

- سأفعل بعد أَخْذِكِ معي.

٧

استعدتُ وعيي على وقع الاهتزاز، وملامح وجه كالح!

تفرّستُ قسماتِ من كان جسدها يلتصق بجسدي حدّ الضّغط عليّ. كانت في مثل عمري أو أزيد بقليل.

- أين أنا؟

سألتُها بقلب واجف مفعم بالكدر، بينما كانت منهمكة في إرسال دموع صامتة.

- ...

لم تفه بحرف، فكرّرت سؤالي بارتياع:

- أين أنا؟

وأمام صمتها حاولتُ الإتيان بحركة ما، بيد أنّ جسدي المكبّل تماماً

لم يسعفني في شيء.

بصعوبة بالغة استدرتُ ببصري إلى الجهة المقابلة.

لم نكن اثنتان بل كنّا أربع!

وجوه عابسة، وأبصار شاردة، وتنفّس متقطّع غير منتظم.

كنّا مدسوسات داخل هودج فيما يشبه التليس، كل فتاتين في جهة!

- أين أنا؟ أين نحن؟ جمجمتُ بضراعة.

فأجابتني واحدة من الفتاتين قبالتنا وهي ساهمة النظرة:

- فوق ظهر ناقة.

انتفض قلبي داخل صدري، وقلتُ لها بصوت يضارع الأنين، ما دامت قد تفاعلت معي:

- من أنتنّ؟

فردّت تقول في صوت حزين:

- أنا **النعمة**.

ثم أردفَتْ بقهرٍ:

- ونحن مثلك وقعت علينا أيادي الظلام.

فهمستُ في دواخلي وفي نفسي صرخة ألم كاوية:

- أيادي الظلام!

وبصوتٍ مسموع أردفتُ، وقد تبرعمَ الاستغراب على قسماتِ وجهي:

- أيادي من؟

هتفت بي النّعمة لحظتها بنبرة تعتريها اليبوسة:

- ألم تحذّرك أمّك من الخاطفين والنخّاسين؟

فأجبتُ بصوت متهالك:

- بلى!

ثم نظرتُ إليها بعينين جاحظتين، وتمتمتُ:

- لكن...

ودون أن أتمكّن من نطق كلمة واحدة إضافية تدفّقتِ النعمة تصرخ في وجهي:

- لا تكثري الأسئلة! وفّري عناءك! كان عليكِ الحذر أكثر

قبل الوقوع في المصيدة، أمّا الآن فلا شيء سيجنّبك مصيركِ.

وكما صرخَتْ في وجهي، فعلتُ أنا الأخرى أرمي عليها نقاب الحيرة والالتباس:

- ولماذا نحن هنا؟

فردّت عليّ بصوت مرتجف:

- نحن هنا لأنّ بشرتنا سوداء.

- وإلى أين نحن سائرات على وجه التحديد؟

- لقد خُطِفنا، ويتمّ الآن نقلنا لبيعنا في سوق العبيد.

جمدت عيناي من هول ما سمعت، وقلت:

- سوق العبيد!

لقد أيقظتْ كلماتها ناراً بدواخلي، وأبدلتْ غفلتي عن لون بشرتي المائل إلى السّواد بيقظة مفجعة بهولها، قاسمة للظهر بعنفها، فتّاكة بمرارتها، قاتلة بقذارتها.

- نعم لذلك وفّري كلّ عناء، واطلبي الله أن يشتريك سيّد يحسن معاملتك.

ردّت عليّ النعمة، وهي ترمقني بعينين مرهقتين، فأجبتها متأوّهةً:

- لكنّني حرّة بنت حرّ!

- كنتِ. أمّا الآن فلم تعودي كذلك.

قالت النعمة تلك الكلمات بنبرة غريبة، فطفِقَتْ تبكي بلا عزاء.

انتبهتُ فجأة أرى كينونتي تضيع، تنفرط، تذوب، تنفلتُ، تصير شيئاً!

كانت معالم الاستسلام للوضع المريب تتدفّق تباعاً من كلمات محاوِرَتي، وكان حديثُها يشي بأنّها كانت تتوقّع حصول ما حدث!

كجدول صغير سائر بترنّم إلى البحر الكبير كانت تبدو!

وكسمكة صغيرة مؤمنة بأن قبرها هو بطن الحوت كانت تتحدّث!

أمّا أنا فلم أتقبّل حرفاً واحداً ممّا سَمِعَتْهُ أذناي. لكنّه نزع عنّي رداء السّكينة وجعلني أمام قهرين، قهرُ فراق أحبّتي وواحتي وحياتي...، وقهر سلب حريّتي وإنسانيتي وكرامتي...

- أمّي!

صرختُ بأعلى صوتي قبل أن أزيد:

- أبي!

لحظتها أجابني صوتٌ بازدراء:

- اصمتي وإلا نزعتُ جلدك عن لحمك!

فهتفتُ، وقد أحاطت بتلافيف رأسي أشباح التوجّع:

- أمّي! أبي! أمّي!

- قلتُ لك اصمتي يا قطعة الفحم وإلا سعيتُ إلى تأديبك كما يليق بك!

- أمّك هي قطعة الفحم أيها الخاطف الجبان.

قلتُ فتفجّرت مدامعي تذيع وجعي.

- هكذا إذن. سنرى من أمّه قطعة الفحم.

هنا صاحت بي الفتاة الأولى مرتعدةً:

- ماذا فعلتِ أيّتها الحمقاء؟

فأمرتني الثانية وقد تقبّض وجهها:

- توسّلي إليه حالاً!

ثمّ أضافت النعمة بصوت مشرّب بالانفعال:

- هيّا افعلي ذلك الآن وجنّبي نفسك الهلاك!

توقّف الاهتزاز فجأة مع تعالي صياح الخاطف:

- اش! اش! اششششش!

مرّت اللّحظات ثقيلة فشلت فيها الحركة في وجهي.

- اخ! اخ! انخخخ!

همر الخاطف فراحت النّاقة تتهادى نزولاً، وما إن استوت جالسة حتّى نزع قطعة القماش المنسدلة على الهودج، وأزاح بعد ذلك اللثام الأزرق الملفوف حول رأسه ووجهه، قبل أن يسألنا بوجه مكفهر، وملامح متجعّدة تفوق عمره بكثير.

- من القذِرة منكنّ التي تتطاول على أسيادها؟

ابتلعتُ بكائي وقلتُ:

- أنا.

وأخذتُ أحدّق مباشرة في عينيه دون أن أسحب نظري.

- بل أنا. قالت من كانتْ بجانبي!

- لا تصدّقهما. أنا من تكلّمتُ. نطقتْ من كانت بجانب النعمة!

- كفى كذباً أنا ما عيّرته. هتفتْ النعمة.

أنشأ الخاطف يداعب بين يديه حزاماً جلدياً ويوزّع بصره علينا، ثم غمغم:

- هكذا إذن!

كان معتدل القامة نحيلاً بشكل بارز، له عينان حادّتان، وأنف معقوف متوسّط الحجم. ومن وراء أجفانه المخيفة أطلّت أبالسة الشرّ تصطخب وتتدافع في دواخل قلب شخص مجرم، جعل من الاحتيال وسلب حريّة النّاس مكسب رزقه وقوته.

بعنف انتزع القَذِرُ النعمة من مكانها، وحملها بين يديه الوسختين، وهي تصرخُ:

- اتركني أيّها الكلب!

- اتركها! ابتعد عنها!

صِحنا به دون طائل، بينما طفقَ يصفعها، ويكيل لها الشّتيمة تلوى الأخرى، ويجبرها على الانبطاح أرضاً، حتّى يتسنّى له جلدها.

- المخيطير! ماذا تفعل؟

صاح به واحد من رجال القافلة، علمنا لاحقاً أنّه القائد.

فنبر المخيطير بغيظ متفاقم:

- لقد تجاوزت الكلبات حدودهنّ، ويجب عليّ تأديبهنّ.

- توقّف! هل جُنِنت؟

- لقد...

- قلتُ لك توقّف حالاً! قال القائد بلهجة يساورها الانزعاج.

هاج المخيطير وماج، قبل أن يتلاشى عزمه ويذعن قائلا:

- أمرك.

فأعاد خفرنا فوق ظهر النّاقة من جديد، ولحقنا بمؤخرّة القافلة تحت سَقْطِ لِسانه الخبيث.

٨

استمرّت رحلتنا ستّة أيام.

قطعنا معظم وقتها زاحفات على الجمر، مُطرقات، حائرات، تائهات بين تجاويف الضّياع وهدير الفراغ وعراء المجهول. نصغي لأنفاسنا المتقطّعة فنغرق في دواهي اللّوعة وهزّات التشرّد. وننظر لبعضنا البعض فتبوح عيوننا بسرائر قلوبنا، مستشعرات بؤس الأسر وضيقِهِ، وضنك الخطف وضرّه.

كانت القافلة تنطلق مع اللّحظات الأولى للصّباح.

تُفَكُّ الإبل من عقالها، ويُعادُ تحميل السّلع عليها، ويُعْلِنُ قائد القافلة عن استئناف الرحلة قائلاً بصوت قويّ:

- بسم الله مجراها ومرساها.

يعطي إشارة الرّحيل فيتزعّم المسير لإرشاد الإبل وتوجيهها. وعند حلول وقت الصّلاة كان يرفع الآذان، فيشرع أعضاء القافلة بأداء الصلوات بالتّناوب حتّى لا تتمهّل القافلة أو تتأخر. وفي ظل قلّة الماء فقد كان التيمّم برمال الصّحراء هو الحل.

تسير القافلة لعشر ساعات تقريباً بشكل متواصل، قبل التوقّف للاستراحة والتقاط الأنفاس.

وقبل هبوط اللّيل يقوم الرّجال بحلب النّوق، والاحتطاب لتحضير العشاء والشّاي والتدفئة والاستضاءة.

وكم منّيتُ نفسي أن يعثر علينا أهل واحتي!

وبأنفاس مكتومة وحلق مهصور كنت أتصوّر ما الذي حدث بعد تأخّر عودتي إلى البيت!

لا ريبَ أنّهم أرسلوا في إثري أحداً ما، قبل أن يتأكد غيابي وتنهمك الواحة في البحث عنّي.

كيف هو حال أمّي المسكينة؟ وكيف تعيش تفاصيل غيابي المفاجئ هذا؟

كيف هو حال أبي وإخوتي وأهلي من بعدي؟

لم يحصل من قبل أن اختفت فتاة بهذا الشّكل -ربّما كان يحدث ذلك فيما سبق- وبالتالي فلن يشكّ أحد في أنّني خُطِفت.

سيتفقّدون صهريج الماء ظنّاً منهم أنني غرقت فيه، وسيفتّشون عنّي في الكهوف، وبين منحدرات الوادي، وربّما في آبار الخطّارة...

لكن لا أحد سيتصوّر أنني أواجه هذا المصير المأساوي، خاصّة وأنّ القافلة نزلت ضيفاً بيننا!

لقد تنكّر الأوغاد للملح، وخلّفوا كلّ خلق حميد وراءهم، ضاربين كل معاني الإنسانيّة عرض الحائط.

آه!

آه! آه!

كم من آهات حارقة مزّقتْ كبد اللّيل؟

وكم من صرخة كفنها الهبوب المأس الميّاد للصّحراء وقَبَرَها المدى المفتوح؟

أمّي!

أبي!

وَمَضَتْ في خاطري صورتُهما، في لحظة انبثقت فيها كلّ الهواجس التي تنوس في دواخلي، ويرزح تحت سياطها قلبي المفطور على فراقهما.

هل يُصغيان إلى مناجاة قلبي المتدفّقة باستمرار؟

يا إلهي الرّحيم ما أقسى الغوص في الهاجس!

وما أسوأ التشرّد في العناق!

وما أقبح عراء المجهول!

وما أبشع نشيش سكّين الضّياع!

وما أصعب ثنايا الأمل!

أبحرتُ في لجّة الخيال، على بساط الشّوق والحنين فتبَرعَمت أمام ناظريّ الواحة تُجَلِّلُها سحابة سِحر وهيبة ووقار، وأسراب طيور تحلّق حرّة في رحابة الفضاء المفتوح وفوق تلّة النّدى.

أرهفتُ السّمع، وقد أثقلت ظلال الألم مهجتي وعَشْعَشَتْ، فتناهى إليّ خرير السّواقي، وحفيفُ سعف النّخيل وأغصان الأشجار واللّوز والرّمّان.

عِجبتُ من نفسي كيف أستحضرُ مباهج الحياة وأنا تحت أجنحة الموت! وكيف لي أن أطارد مفاتنها وأنا مثقلة بالقيود!

على مبعدة مترين لا أكثر كان يحرس خيمتنا رجلان، يتناوبان على ذلك مع آخرِين، يرتشفان الشّاي بدون انقطاع، ويتبادلان أطراف الكلام متى عنّ لهما ذلك، فيتوغّلان صعوداً ونزولاً في شعاب الحديث.

كان صوت تنفّس زميلاتي في الأسر يصلني تباعاً، وقد استعدتُ إدراكي بالواقع المرير الذي أحيا تفاصيله. للحظات استأنستُ به في هذا القفر الخالي. على الأقل ذكّرني أنّني لستُ لوحدي وسط اللّجّة!

إنّه مصير مشترك يجمعنا نحن الأربعة.

وأيّ مصير!

- متى يا إلهي الرّحيم أعانق شذى الحرّية وأداعب خلجاتها مجدّداً؟ متى؟

دمدمتُ أغازل رجع الجواب، ونبال الكآبة الجارحة تخترق جدار روحي بلا رحمة.

وقبل أن أسلّم جفنيّ للكرى، تحت سوط التّعب المرهق، التفتّ إلى الفتيات بجواري، فلاحت جثثهنّ تحت فراغ الظّلام كأكياس من خيش طرحها صاحبها أرضاً بغير اكتراث!

٩

وصلت القافلة إلى مرّاكش قُبَيْلَ العصر.

وعند مدخل المدينة الجنوبيّ، أوقف رجال المخزن أعضاء القافلة سائلين إيّاهم عن نوعية البضاعة المجلوبة.

ظنّت الفتيات أنهنّ وجدن أخيراً من يخلصهنّ من سنابك الأسر اللّعين، وسرعان ما بدأت صرخاتهنّ تتصاعد من تحت الغطاء الذي وضعه الخاطفون فوقهنّ لإخفاء أثرهنّ.

- ماذا لديكم هنا؟ هتفَ المسؤول المخزني بصوت غليظ.

فردّ عليه قائد القافلة، وكأنّه لم يسمع صوت الفتيات:

- بضاعة.

ابتسم المسؤول المخزني ابتسامة امتعاض، وقال:

- ومتى كانت البضاعة تصرخ مستنجدةً يا رجل؟

- سواء صرخت أم لا فنصيبك منها ثابت سيدي المحترم.

ولوى المسؤول المخزني شفتيه، وقال:

- أشكّ في ذلك، وقد دسستموها بهذا الشّكل!

بسط قائد القافلة راحتي يديه باستسلام أمام المسؤول المخزني، وقال في هدوء:

- درءاً لشرور الطّريق يا سيدي، وأنت أعلم النّاس بهذا.

فأشار المسؤول المخزني برأسه، وقال:

- على كلّ حال ارفع الغطاء حتى نرى كيف سنتعامل مع الوضع.

محتفظاً بالنّبرة عينها، أجاب قائد القافلة وهو يحكّ ذقنه:

- كما نفعل في كلّ مرّة يا سيدنا المحترم.

فانبرى له المسؤول المخزني بصوت فيه لوم:

- لكنّك لم تكن تخفي عنّا شيئاً فيما تصرّم من الوقت!

- وحتى الآن لم أفعل. فقط بضاعة هذه المرّة كانت متسرّعة

في الإعلان عن نفسها لكم.

قهقه المسؤول المخزني قبل أن يعقّب قائلاً:

- أعجبني منك هذا القول.

فصاح قائد القافلة بأحد رجاله، وقد استشعر دنوّ الفرج:

- هيّا انزع الغطاء!

وفي تلك الأثناء اشرأبت الصّغيرات بأعناقهنّ يطلبن النجدة والعون بنظرات بئيسة تمزّق نياط القلب، وأصوات مبحوحة نال منها التعب والغمّ.

- يبدو أنّك لم تُؤدّب هؤلاء الحقيرات جيّداً!

هتف المسؤول المخزنيّ بقائد القافلة في صوت محشرج.

لحظتها جفّ ريق الفتيات، فزاد عطش الأرواح الظامئة، وفي مهبّ الريح صارت أماني الخلاص وخَبَتْ أضواء مصابيحه.

إلى قعر سحيق بلا قرار انحدرن، وبنظرات خائبة طفقن يحدجن المسؤول المخزنيّ ومن معه.

ما أثقل نظرة الخيبة على الرّوح الحيّة!

وما أخفّها على الرّوح الميّتة!

ابتسمت النعمة ابتسامة جوفاء، ابتسامة من استنكف من النّهل من ينبوع الأمل، ومالت إلى الخلف برأسها، وهي تحلق في الفراغ بعينين مظلمتين.

- العتب علينا يا سيدنا، لا تؤاخذنا أرجوك.

ردّ عليه قائد القافلة مصطنعاً بعض التلطّف، وهو يدسّ رزمة نقود في جيبه.

- عجّل حتى تلحق بالسّوق!

أجابه المسؤول المخزنيّ راضي النّفس، وبصوت قريب إلى الهمس أضاف:

- تخلّص منهنّ قبل أن تواجهك مشكلة ما.

١٠

إلى منزل في زقاق ضيّق وسط المدينة أُخِذتِ الفتيات الأربع.

كان الجوّ ما يزال خانقاً في مراكش مع تطاير بعض الغبار. أمّا اللّون الأحمر للمدينة فأوحى للفتيات أنهنّ غير بعيدات عن أوطانهنّ. لكنّ فحم الخيبة التي اخترقت جدار قلوبهنّ، قبل وقت وجيز، أرمضت قواهنّ ومزّقت أوصال المقاومة بدواخلهنّ.

ضربة واحدة محكمة تجعّدت لها حبال الرّجاء وتقطّعت، ودفعت الفتيات إلى الاستسلام والرّضوخ وتقبّل الوضع.

إثر ولوجهنّ عتبة المنزل الذي أُخِذْنَ إليه، انجلت سحابة الكآبة التي كانت تكتنف المدينة، ولاحت معالم حياة هنيئة بداخله، فسيفساء ونافورة وأشجار وفوانيس معلّقة وأفرشة منمّقة...

- مرحبا بسيّد الرجال. حمداً لله على سلامتك.

قالت سيّدة المنزل مخاطبة قائد القافلة، وعلامات الانشراح بادية على قسمات وجهها.

فردّ قائد القافلة في فرح، وهو يضمّها إلى صدره:

- سلمتِ لنا يا نوّارة من كلّ مكروه.

- تفضّل من هنا لترتاح قليلاً من عناء السّفر!

استدار قائد القافلة برأسه نصف دورة، وأشار بعينيه إلى الفتيات، ثمّ قال:

- لن أرتاح حتّى أبيع ما بحوزتي.

وبعد نظرة تفقديّة خفيفة، صاحت نوّارة بشيء من الذّهول:

- العدد قليل هذه المرّةٍ!

وبكثير من الأسف دمدم قائد القافلة:

- الطّريق خالية هذه الأيام يا نوّارة.

- على كلّ حال سأجهّزهن لك في وقت وجيز، وستلحق السّوق إن شاء الله.

- سأنتظركِ هنا.

وأومأ القائد إلى غرفة مجاورة.

- دون أن تأكل أيّ شيء؟

فقال، وهو يمرّر كفّه على رأسه:

- كأس لبن مع كسرة خبز يفيان بالغرض.

- أمرك يا سيّد الرّجال.. أمرك!

منحت نوّارة لقائد القافلة ما طلب، ثم شرعت في الاعتناء بالفتيات.

نزعت عنهن أسمالهنّ المتّسخة، وألبستهنّ فساتين بألوان مُبهجة لا تتوافق مع ما يسري في صدورهنّ من مشاعر متضعضعة. كانت تتقصّد إظهارهنّ في صورة حسنة تُعينُ على إخفاء كسوة أتراحهنّ، ولفتِ الانتباه إليهنّ لاحقاً.

اعتنتْ بشعر كل واحدة منهنّ وضفرتهُ، وغسلت أطرافهنّ ووجوههنّ، واجتهدت كثيراً لطمس معالم الرّحلة المتعبة.

- الفتيات جاهزات! صاحت نوّارة.

فأجابها قائد القافلة وهو يتّجه صوبها:

- والوقتُ مناسب للذّهاب إلى السّوق.

ثمّ جعل يرمق الفتيات بنظرات إعجاب، قبل أن يهتف بنوّارة قائلاً:

- أنتِ ساحرة يا نوّارة.

فابتسمت ابتسامة عريضة، وقالت:

- الوقتُ ضيّق وإلا لكنتُ اعتنيتُ بهنّ أكثر وأكثر.

- لا شيء ناقص أحسنتِ العمل كدأبكِ.

وبينما صمتت نوّارة أمام الإطراء الذي حرّك مهجتها، دنا منها قائد القافلة حتى إذا التصق بها غمغم قائلا، وهو ينظر شزراً إلى الفتيات:

- هل تأكّدتِ من سلامةِ بكارتهنّ؟

- حتماً إنهنّ عَذارى!

- تأكّدي أرجوك! لا أريد لأحد أن يعيد إليّ البضاعة بعد بيعها.

- لا أحد سيفعل. ثِقْ بي.

صمتَ قائد القافلة بُرهةً، بينما استتلت نوّارة بنبرة لا يساورها الشّكّ:

- انظر فقط إلى نظراتِ عيونهنّ.

كانت تهاويلُ الفجيعة تقترب منهنّ، ولسان الشّقاء يمتدّ، وشفير الهاوية ينادي عليهنّ من كل ناحية وصوب.

جسدٌ متعبٌ..

وأعصابٌ منهكةٌ..

وقَلْبٌ مهدودٌ منهارٌ..

وأسئلةٌ ورجعٌ وأصداءٌ...

لماذا هذا يحدث؟ وبموجبِ أي حقّ يحدث؟ وكيف سيكون المصير؟ وإلى أين على بساطِ مآتي المجهول ومُخبّآتِهِ؟

- سأنتظرُ عودتكَ في اللّيل. قالت نوّارة بنبرة سائلة.

فأجابها قائد القافلة غامزاً:

- سأعود إليكِ.

وقبل أن ينصرفوا جميعاً صاحت نوّارة بدمّاحة، تذكّرها بما أوصتها

به أثناء الاعتناء بها في الحمّام:

- لا تنسي ما قلتُ لكِ يا فتاة!

- وماذا قلتِ لها؟ سأل قائد القافلة وقد انتابه الفضول فجأةً.

- لا شيء مهم إطلاقاً. توكّل على الله، ولا تنسى أنّني سأظلّ أرقبُ أوبتكَ.

١١

قبل غروب الشّمس بحوالي السّاعة والنّصف، انتصب وسط **سوق الغْزَلْ** بمدينة مرّاكش أشهر دلاّليه **موسى**.

مغمض العينين رفع يديه للسّماء، ونبر بصوت عريض:

- شي لله أ سيدي بلعبّاس السّبتي.

فردّدت من خلفه عدّة حناجر في خشوع:

- شي لله أ سيدي بلعبّاس السّبتي.

وكان السّوق عبارة عن باحة واسعة، تحيط بها بيوت طينيّة يضع فيها التّجّار سلعهم قبل انطلاق عمليّات المساومة وفسح المجال أمّام الدلاّلين للقيام بأدوارهم.

وكم كان في ذلك المساء يغصّ بالفضوليين، وبالبائعين،

والمشترين من جميع بقاع البلاد!

وبما أنّ مدينة مرّاكش كانت هي المحطّة الأولى في رحلة العبيد المجلوبين قسراً من الجنوب، فإنّ كثيراً من السّادة كانوا يحرصون بشدّة على أخذ حاجتهم من العبيد، خاصة الإماء، قبل انتقالهنّ من فراش إلى آخر.

- الفاتحة أ سيادنا! أردف الدلاّل موسى.

فغمغم معظم الحضور يتلون آيات سورة الفاتحة.

بعد ذلك شرع كلّ دلاّل في تحضير العبيد الذين لديه، فمنهم من راحَ ينزعُ عنهم ثيابهم القديمة المتّسخة ويستبدلها بأخرى جديدة نظيفة، ومنهم من اكتفى بتحذير من هم تحت مسؤوليته من مغبّة القيام بأيّة حركة غير محسوبة العواقب، كما هو حال الدلاّل موسى مع دمّاحة وبقيّة الفتيات.

- لا أريد لأيّ منكنّ أن تفكّر في معاندة الزّبائن. مفهو م !

دمدم الدّلاّل موسى بغضب.

وبالرّغم من أنّه لم يحصل على أي ردّ من الفتيات الأربع،

إلاّ أنّه اعتبر صمتهنّ دلالة على الموافقة والخضوع، فزاد من حدّة نبرته يجهر أبجدية الجور والخسف:

- إذا قال الزّبون اركعي! اركعي.

وإذا قال افتحي فمكِ! افتحي.

وإذ قال انزعي ثيابكِ! انزعي.

مفهوم!

أُنْشِدَ على مسامع الفتيات الأربع أول بيت من قصيدة العبودية، فشبّت نار الصّخر في جحيم القهر السفلي النّازع لكل بواعثِ الاطمئنان الذي ألفن السباحة في يمّه منذ وعين الوجود.

استمرَّ الصّمتُ مخيّماً على الأجواء، وواصل الدّلاّل موسى انقضاضه على فرائسه بأنيابه المتعطّشة:

- لا أريدُ لسوطي أن يأكل من جلودكنّ المدبوغة!

وما ختم كلامه حتّى أمسك بالحبلِ الذي يقيّدهنّ جميعاً، وتقدّم بخطوات ثابتة، مشيراً إليهنّ أن يَسِرنَ خلفه.

- في جميع الأحوال سنُباع. لا ندحة لنا من هذا، لذلك

لا داعي للمقاومة يا فتيات.

هَمَسَتْ النعمة، وهي ترمق صديقاتها من خلف أجفان مكحولة بالضّيم والغلبة، فسارت أوّلاً من خلف الدّلاّل موسى.

١٢

- مملوكات! مملوكات! مملوكات!

هكذا طَفِقَ الدّلاّل موسى يصيح مارّاً من أمام الزّبائن الجالسين والواقفين على امتداد دائرة السّوق الفسيحة.

- كم منحوا فيهن؟ سأل زبون محتمل.

- اليد مبسوطة لك، منك نسمع؟

- ٢٠٠٠ بسيطة فيهن جميعاً؟

حدج الدّلاّل موسى الرّجل بنظرة باردة، وقال:

- بمعنى ٥٠٠ بسيطة للواحدة!

ثمّ ضحك على مهله، وزاد بجفاء:

- هذا السّعر لا يلائم هذه السّلعة!

فواصَلَ يجوب أطراف السّوق صائحاً:

- مملوكات! مملوكات! مملوكات!

سلعة جديدة وصلت للتّو! سلعة جديدة لم تمسسها يد قط!

مملوكات!

- بِكَمْ تلك التي في الخلف؟

سأل أحد المقرفصين الدّلاّل موسى، وهو ينتفض واقفاً مُزيحاً عن أذيال ثيابه الغبار الذي علق بها.

- انظر يا سيّدي المحترم، إنّها سلعة لا وجود لمثيلها في السّوق.

هتف الدّلاّل موسى، فدفع دمّاحة بمرفقه حتّى تمثل بين يدي السّائل عن ثمنها، بينما تكدّست الفتيات الأخريات خلف ظهره.

- أعتقد أنّني سألتك سؤالاً مباشراً يا موسى!

- سألتني سؤالا مباشراً، وأنا أجيبك بانشراح وصدر رحب.

توقّف موسى برهة، ثمّ زاد بصوت خافت وهو يدنو من السّائل:

- ١٠٠٠ بسيطة حسنية.

- ١٠٠٠ بسيطة!

تراجع الدّلال موسى خطوتين للوراء، وقال في شيء من الخيبة:

- هذا الثّمن الممنوح لحدود اللّحظة، وليس ثمن البيع.

- وما هو ثمن البيع؟

- منك نسمع سيّدي المحترم؟

لحظتها أشار الرّجل لدمّاحة أن تقترب، حتّى إذا صارت قُبالته تماماً راح يتفرّسها بنظراته طلوعاً ونزولاً.

- ما اسمكِ؟ بادرها مستفسراً وعيناه مركّزتان على قسمات وجهها.

صفنت دمّاحة لثوانٍ ثم تمتمت بصوت ضعيف والحرقة تشرب من عروقها:

- دمّاحة.

- هل سبق لكِ المجيء إلى هذا السّوق من قبل يا دمّاحة؟

- إنّها يا سيّدي...

نطق الدّلاّل موسى، قبل أن يقاطعه الرّجل بفتور:

- هل بإمكانها أن تجيب بنفسها؟

- طبعاً.. طبعاً. ردّ الدّلاّل موسى مصطنعاً الابتسامة.

- هل سبق لكِ المجيء إلى هذا المكان؟ كرّر الرّجل سؤاله.

- لا.

أجابت دمّاحة وقد وهت حبال قلبها.

- سأمنحكَ ١٠٠٠ بسيطة حسنية يا موسى؟

- ١٠٠٠ بسيطة! لقد منحوا هذا الثمن من قبل ولم يحصلوا عليها.

- ما رأيك في ١١٠٠؟

مطّ الدّلاّل موسى شفته السّفلى دلالة عدم الرّضى.

- ١٢٠٠؟

- ...

- ١٣٠٠؟

- ...

عاد الرّجل لفحص دمّاحة، وكأنّه استدرك ذلك متأخّراً!

- استديري!

أمرها بصوت منخفض، فما كان منها إلاّ أن أذعنت باستسلام تام، وأطرافٍ مرخية.

- افتحي فمك!

فتحت دمّاحة فمها، فجعل الرّجل ينظر بداخله وكأنّه يبحث عن شيء ما!

تركها واقفة في مكانها بلا حراك، فمشى بضع خطوات حتّى إذا دنا من الدّلاّل موسى همس في أذنه بكلام مبهم.

ساد الصّمت قليلاً، فانطلقت ضحكة مجلجلة من الدّلاّل موسى مزّقت خيوطه، أعقبها قائلا:

- بكلّ تأكيد هي كذلك سيّدي المحترم.

- إذا كنت متأكداً سأمنحكَ ١٤٠٠ بسيطة حسنية. وهذا آخر مبلغ أستطيع دفعه فيها.

- هل تريدها لوحدها؟ انظر معي ثلاث أخريات...

ودون أن يتمكّن الدّلاّل موسى من إنهاء كلامه، صاح به الرّجل قائلاً:

- أريدها لوحدها، وسأدفع مقابل الحصول عليها ١٤٠٠ بسيطة حسنية.

كفّ لحظة، ثم استتلى:

- هذا آخر كلام عندي.

تنحنح الدّلاّل موسى لتنقية صوته، فقال للرّجل:

- توكّلنا على الله.

- لنوثّق عملية البيع والشّراء إذن؟

- على بركة الله. سأبلغ صاحب السّلعة في دقيقة ثم أعود.

استدارت دمّاحة ترمق الفتيات الأخريات بنظرات تطفح بأنين الفراق القريب، وتنطق برعشة الأعماق وتعاسة اليائسين، علّها تجد بعض العزاء!

- **فاقد الشّيء لا يعطيه يا دمّاحة، فنحن أيضاً لا عزاء لنا.**

كالغبار سنتناثر، وستفرّقنا سبل القيود ومكامن الأيّام، وتبلعنا لجّة النّخّاسين، ويلهبنا شظف الحياة، وتسحقنا أقدام الدّهر وعادياته.

فاقد الشّيء لا يعطيه يا دمّاحة..

سَيُغيّبنا المنعطف للأبد!

فوداعاً..

ودعاً..

وداعاً...

هكذا نطق بريق العيون الذّابلة المكتحِلَة برماد التوجّع والألم.

١٣

إلى مدخل سوق الغزل سار المشتري، يعقبه قائد القافلة، تتبعهما دمّاحة بخطوات متثاقلة وغصّة في الحلق، أما الدّلاّل موسى فواصل تطوافه عبر ربوع السّوق يعرض ما بقي معه من بضاعة!

أمام طاولة خشبية متواضعة، يجلس خلفها عدلان مكلّفان بتحرير العقود، ومحتسِبُ موكَلُ إليه استخلاص الضريبة عند انتهاء عمليات البيع والشراء، وقف الثلاثة لإنهاء الصّفقة.

- السّلام عليكم ورحمة الله. هتف قائد القافلة.

فأجاب المحتسب بلهجة شبه آلية:

- وعليكم السّلام ورحمة الله. تفضّلوا نحن في الخدمة!

- نريد تحرير عقد بيع هذه الأَمَة.

- مَنْ منكما البائع؟ ومَنْ منكما المشتري؟

...

وانهمك العدلان في تحرير تفاصيل العقد وبنوده، واحد يسأل، وآخر يدوّن.

وما فرغا منه حتّى صاح أحدهما يتلو مضمونه على السّامعين:

- **الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله.**

اشترى الشّريف سِيدْ العَابْدْ بن الشّريف سيدي محمّد الأندلسي من بائعه أحمد بن عبد الله التواتي الملكية التّامّة لأمة تسمّى الآن دمّاحة، لونها لون بنيّ غامق، حسنة القدّ، ممتلئة الجسد نسبيّاً، حديثة السّنّ، لها شفتان مكتنزتان قليلاً، وأنف صغير، وحاجبان رقيقان.

وبلغ ثمن البيع ١٤٠٠ بسيطة حسنية.

وأبرم الطّرفان العقد، وتبادلا فوراً السّلعة والثمن بالبسيطة الحسنية.

وأبرأ كل واحد منهما الآخر، حسب العرف في هذه المادّة، ممتنعين عن كلّ طعن بعد تصفية القضية والانتفاع.

وعلى سنّة المسلمين في عهدة الرّقيق تمّت عمليّة البيع والشّراء.

***

كذا شاءت الأقدار..

وكذا نطقت كلمتها.

***

الفصل الثّالث:

١

الأزقّة ضيّقة، والدّروب ملتوية ومتشابهة، والتصاق الدّور يكاد يحجب خيوط الشّمس.

كالرّاهبة حافظت مدينة فاس على كينونتها كما هي، وعلى سكونها الحيّ، كلّ شيء في مكانه وعلى شكله كما وُجِدَ أوّل مرّة، نفس النّعال والبرانس والعمائم والسّروج والحليّ والزّخارف والأبواب والأسوار والقباب والأضرحة والزّوايا والسّقايات والشّرفات والحدائق، ونفس نمط التّفكير واللّباقة الرّوحانية والابتسامة والغرور والعادات والتّقاليد...

ولو قُدّر لمن عمّروها سابقاً أن يقوموا من قبورهم لوجدوها كما تركوها، ولكان يسيراً على الطّالب منهم أن يعود إلى مكان دراسته، وعلى النّاسك المتعبّد أن يرجع إلى مكان خلوته، وعلى صاحب

الورشة أن يعثر على دكّانه...!

لقد خضعت فاس لهذا القدر بانتشاء أمام صروف الشّيخوخة التي ما برحت تدبّ في أطرافها، دون أن تنال من روحها الواثقة من ثباتها المعتّق.

بعيون مغلّفة بالدّهشة كانت دمّاحة تستقبل معالم المدينة، متلمّسة بعض الشّبه بينها وبين ما تبدّى لها من مدينة مرّاكش.

ولوهلة نسيت أوجاع المنفى، والبعد عن الأهل والأحباب، وكلل الرّحلة المرهقة، واستسلمت ترصد النّزر القليل من إيقاع الحياة الفاسية.

عند مدخل دار سِيدْ العَابْدْ انتصب مبيريك يستقبل سيّده ومن معه، بابتسامة عريضة يزيّنها بياض أسنانه اللّؤلئيّة.

- حمداً لله على سلامتكَ سيّدي.. حمداً لله على سلامتك.

قال مبيريك بضراعة.

- بارك الله فيك يا مبيريك. كيف هي أحوال الدار؟

- الدار بدونك فارغة موحشة، بل مدينة فاس بأسرها كذ لك .

لا حرمنا الله منك، ومن طلّتك المشرقة.

ردّ مبيريك بما يشبه الخشوع، فدنا من سِيدْ العَابْدْ، قبّل كتفه الأيمن أوّلاً، ونزع عنه برنسه ثانياً، ثمّ رمق دمّاحة بنظرات خاطفة، بينما كانت هي مستغرقة تتفحّص هيأته الغريبة عنها!

لفت انتباهها رأسُه الحليق، والنّدبُ الغائر الملتئم على وجهه، والحلقتان الفضّيتان الثّقيلتان المتدلّيتان من أذنيه!

- اهتمّ بأمر الدّواب يا مبيريك! أَعِدْها لصاحبها، وأخبره أنّني سأزوره غداً لأكمل له دفع الإيجار.

- اعتبر الأمر مقضياً سيّدي!

وقبل أن ينسحب مبيريك للاهتمام بما أوصاه به سِيدْ العَابْدْ، ولج إلى الدار مسرعاً يتأبّط برنس سيّده، وهو يصيح بصوت سمعه كل من بالدّاخل:

- وصل سِيدْ العَابْدْ! لقد وصل سِيدْ العَابْدْ!

أعلنت كلماته حالة استنفار قصوى في جنبات الدار، فهرع الجميع لاستقبال العائد، وعند السطوان تزاحموا لتقبيل يده ومباركة عودته.

لم يتوانَ سِيدْ العَابْدْ في أخذ وقته خارجاً، وفسح المجال أمام أهل الدار للاصطفاف وفق التراتبية المعهودة، فراح يتفقّد صندوق الهدايا التي جلب معه من مرّاكش.

- هل أحمل الصندوق عنك يا سيّدي؟ قال مبيريك بوجه بشوش.

فملق سِيدْ العَابْدْ صوبه، ثمّ أجابه:

- اهتمّ فقط بما أوصيتك.

- أمرك سيّدي!

قال مبيريك ذلك فانسحب راكضاً، والفرحة تقطر من أطرافه!

وعندما أدرك سِيدْ العَابْدْ أنّ وقت دخوله قد حان، خطا خطوة للأمام، توقّف بعدها، فاستدار ناحية دمّاحة، وخاطبها بهدوء:

- تفضّلي!

طأطأت دمّاحة رأسها، وانتظرت ولوجه أوّلا، لتعقبه بخطى وجلة.

في مقدّمة الصّف كانت تقف زوجة سِيدْ العَابْدْ لالّة كنزة، سيّدة الدار الأولى، بكامل زينتها وأناقتها المعهودة، وبجانبها كان يقف

ابنه الأكبر **مولاي إدريس، ودادا مسيعيدة، وبقيّة بناته.**

- على سلامة سيدي.

غمغموا تباعاً وهم يقبّلون يده الممنوحة إليهم بسخاء.

ولمّا فرغوا من السّلام عليه، نادت دادا مسيعيدة على الخدم قائلة:

- أين أنتم يا بنات؟

فتراكضت بعد إشارتها عدّة فتيات، بأعمار مختلفة من أركان الدار باتّجاه سِيدْ العَابْدْ، حتّى إذا دنون منه قبّلن يدهُ هُنَّ الأخريات، دون أن يرفعن بصرهنّ ويتطلّعن إليه ولو خلسة، وعُدْنَ من حيث خرجن.

بعد طقس الاستقبال هذا، تحوّلت النّظرات صوب دمّاحة.

- هل هذا كلّ ما جلبتَ معك؟

تساءلت لالة كنزة في هدوء، فقال سِيدْ العَابْدْ باسماً:

- في الحقيقة هذه هي الوحيدة التي اقتنعتُ بها.

نظرت دادا مسيعيدة إلى دمّاحة بثقة، وعقّبت:

- ولم يحدث أن خاب حدسكَ سيدي.

- أتمنّى أن يصدق هذه المرّة أيضاً.

تمتم سِيدْ العَابْدْ وهو يحدج بطرف عينيه دمّاحة الغارقة في موقفها من شدّة الارتباك، وعدم استيعاب ما يجري.

- ما اسمكِ؟

- اسمها دمّاحة يا كنزة، وهي قليلة الكلام كما ترين.

- لا بأس ستستأنس بنا، وتُفَكُّ عقدة لسانها قريباً إن شاء الله.

قالت دادا مسيعيدة بنبراتٍ متفائلة، قبل أن تضيف:

- يجب أن نختار لها اسماً جديداً.

ضجّت فكرة تغيير الاسم بعنف في دواخل دمّاحة، وتحوّلت الكلمات في فمها إلى تنفّس متقطّع. امتقع لونها، وارتعشت أناملها، وجفّ الرّيق في حلقها، قبل أن يطلق سِيدْ العَابْدْ رصاصة الرّحمة قائلاً:

- أعتقد أن دمّاحة اسم جميل.

فقالت من بعده دادا مسيعيدة بنبرة تسليم، وقد أحنت رأسها:

- فعلاً إنّه اسم جميل.

- على كلّ حال اهتمّي بها جيداً، وأحسني تربيتها كما هو معهود فيكِ يا دادا.

- أمرِكَ سِيدْ العَابْدْ! أمرك...

التفت سِيدْ العَابْدْ لحظتها نحو أبنائه، وقال:

- لقد جلبتُ لكم بعض الهدايا، ستوزّعها عليكم أمّكم فيما بعد .

فاعتلت وجوههم خيبة، مختلسين منه نظرات خاطفة، على حين استطرد هو:

- أمّا الآن فأنا بحاجة إلى بعض الرّاحة.

ثمّ سار باتّجاه جناحه محفوفاً بلالّة كنزة ودادا مسيعيدة.

٢

أَخَذت دمّاحة حمّاماً ساخناً. ومُنِحت طعاماً لذيذاً. وارتدت ما تلبسه دادا مسيعيدة وبقيّة الخدم، قفطاناً بأكمام واسعة مثبتة على السّواعد، ومنديلاً حريرياً لتغطية الرّأس، وسروالاً متّسعاً في الأعلى وضيّقاً عند الأسفل، وبعض الحليّ للزينة، وشربيلا مطرّزاً.

وقُبَيْلَ العصر جاءت دادا مسيعيدة توقظها بلطف:

- دمّاحة! استيقظي يا ابنتي.
- ... (ابنتي!)
- هل ارتحتِ قليلاً؟ سألَتْها متودّدةً.
- أجل. (لا راحة لي هنا أبداً)

- يبدو أنّ الرّحلة كانت قاسية؟

- جداً. (وأنتم أكثر قسوة منها)

- لقد انتهى كلّ شيء يا صغيرتي. أنتِ الآن في مأمن.

- ... (عن أيّ أمان تتحدّث هذه المرأة! هل هي مجنونة؟)

سَعَت دادا مسيعيدة صوب دمّاحة وابتسامة عريضة تعلو قسمات وجهها، حتّى إذا دنت منها أدخلت يدها تحت الإزار فراحت تداعب جسدها بعطفٍ أمومي.

بعد ذلك أخذت رأسها ووضعته فوق ركبتها، دون مقاومة تذكر من دمّاحة أو ما يشي بما تضطرب به نفسها داخلياً، ثمّ انطلقت تبسط الأمور أمام ناظريها بنبرة دافئة:

- منذ أمد بعيد اشتهر هذا البيت بتكوين الخدم، وقد ورث سِيدْ العَبْدْ هذه الحرفة عن أبيه وجدّه.

كَفَّت دادا مسيعيدة لحظة تتفرّس قسمات وجه دمّاحة من تلك المسافة القصيرة، ثم واصلت تقول:

- هنا يا صغيرتي دمّاحة ستتلقّين تكويناً متفرّداً، تحصلين مع نهايته على وثيقة تثبت ما تُتقنينه من شؤون، وإن صحّ القول من

فنون الطّبخ والخياطة وتقطير الزّيوت...، تؤهّلك لولوج عتبات دور المخزن، والبيوتات الكبرى، ولمَ لا القصر السّلطانيّ!

- ... (ومن قال لك أنّني أريد ولوج عتبات دور المخزن، والبيوتات الكبرى، والقصر السّلطاني!)

صمتت دادا مسيعيدة كرّة أخرى تحاول رصد وقع كلماتها على دمّاحة، ثمّ زادت:

- هنا في دار سِيدْ العَابْدْ، أسهرُ شخصياً على إعداد الخدم من النّوع الرّفيع. ولدى سِيدْ العَابْدْ ذائقة متفرّدة في انتقاء من يتّسمون بالذكاء والفطنة وقبول التعليم والتّدريب، وأنا أثق في اختياراته. ومادام قد وقع اختياره عليكِ فأنتِ أهل للتميّز ولا ريب في ذلك.

- ... (هكذا إذن!)

- السيّد هنا هو سِيدْ العَابْدْ، نحمل أوامره ونواهيه ونتشرّبها عروقنا. والسّيّدة هي لالّة كنزة، تصدر الأوامر ونحن نتكلّف بكلّ شيء.

- ... (تبّاً لك ولأسيادك المزعومين! أنا حرّة بنت حرّ. سأموت حرّة، أو على الأقل سأموت وأنا أحاول استرجاع

حريّتي)

- عليكِ فقط أن تركّزي جيّداً وتنتبهي، وأنا سأحرص على نقل كلّ ما تعلّمته خلال عمري المديد إليكِ. وأمّا بخصوص بقيّة الفتيات، فهنّ هنا مثلكِ يتلقّين تكوينهنّ، ويتحتّم عليكِ تعلّم العيش بينهنّ.

بكلماتها المنتقاة بعناية فائقة، تنمّ عن خبرة طويلة في التّعامل مع هكذا وضعيات، واصلت دادا مسيعيدة ترسم لوحة الوضع الجديد أمام ناظري دمّاحة، بفرشاة وألوان زاهية، سالكةً في ذلك طريق تسمية الأشياء بعكس أسمائها.

لقد فَهِمَت المنظومة التي يمثّلها سِيدْ العَابْدْ ومسيعيدة وغيرهما، منظومة السيّد والعبد المتماهي معه كليّاً والمدافع عنه أبداً، بفعل التّجارب المتراكمة والمتوارثة منذ سنوات طويلة، أنّ أفضل وسيلة لجعل العبد يُقبِل على التعلّم في وقت وجيز، هي معاملته بلطف وإحسان.

وفي حالات عديدة، الموسومة بالعنف على وجه التّحديد، يلجأ العبد المُعَنَّفُ إلى طلب إعادة بيعه. حقّ تكفُلُه له العادات والتّقاليد والقوانين المحلّية، يستطيع من خلاله العبد الذي يتعرّض لسوء المعاملة رفض سيّده دون الوضع، لأنّه في نهاية المطاف

بإمكانه أن يرتقي في درجات العبودية دون أن يحسم مسألة تحرّره.

ابتسمت دادا مسيعيدة ابتسامة خفيفة، ثمّ ختمت حديثها التوجيهيّ قائلة:

- مع تصرّم الأيّام ستتبدّى أمام عينيك أمور أخرى، وسأكون إلى جانبك دائماً لتقديم يد العون. أمّا الآن فدعينا نقوم بجولة في الدار، ما دام سِيدْ العَبْدْ غير موجود.

- ... (جميل أنّكِ بدأتِ بهذه الديباجة وكشفتِ أمامي الخطوط العريضة لعملكم القذر)

- سأنتظرك عند الباب.

حوّلت دمّاحة نظرها نحو دادا مسيعيدة وقالت:

- أنا جاهزة، نستطيع البدء بالجولة الآن.

فردّت دادا مسيعيدة، وقد لاح في وجهها الارتياح من ردّة فعل دمّاحة الأولى، والتي اعتبرتها مشجّعة بما فيه الكفاية:

- دعينا إذن نبدأ جولتنا من أول جزء في الدار.

- ليكن ذلك. ردّت دمّاحة في تسليم.

- بالمناسبة كيف وجدتِ لباسكِ؟

نظرت دمّاحة إلى ما ترتديه وكأنّها تنتبه إليه لأول مرّة، ثم أجابت:

- جميل.

وإذ صارتا أمام المدخل الرئيسي، صاحت دادا مسيعيدة قائلة:

- حسناً. هذه باب الدّار، وكما ترين فهي تتألّف من مصراعين لا يفتحان معاً إلاّ في حالات خاصّة ونادرة، على عكس هذه الباب الوظيفية الصّغيرة المنبثقة من المصراع الأيمن، فهي المستعملة للدّخول والخروج الدّائمين.

عندما تنزل هذه المقرعة النّحاسية في الأسفل بكامل ثقلها على هذه القاعدة المعدنية يسمع الطّرق. أمّا هذه الدقّاقة الدائرية الشكل التي ترين هنا في الأعلى فهي لراكبي الدوّاب، يقرعون من خلالها الباب دون أن يضطروا للنّزول.

بعد باب الدّار يأتي السطوان، وهو مدخل الدار، نتجاوزه فنجد أنفسنا في الطّابق السّفليّ وجها لوجه مع النّافورة والسقّاية...

***

وبينما كانت دادا مسيعيدة تنتقل من مكان إلى آخر، وتشرح

بالتّفصيل المملّ كلّ ما يتعلّق به، غَرِقَت دمّاحة، تفكّر فيها وفي مبيريك وبقيّة الفتيات، وتتساءل كيف حدث وتقبّلوا وضعهم!

لقد استفزّها ما بدا على وجوههم جميعاً من معالم الفرح لحظة التّرحيب بعودة سِيدْ العَابْدْ سالماً من سفره!

أن تهلّل زوجته وابنه وبناته لرجوعه أمر مفهوم، لكن أن تملأ السعادة قلوب الآخرين، فهذا يسترعي الانتباه، ويطرح أكثر من سؤال.

- يجب أن أحذر كل الحذر من تصديق المشاعر التي تروج في هذا المكان.

سأعاملهم بالمثل، وسأواصل البحث عن أمرين أساسين: السّبب وراء استسلام دادا مسيعيدة ومبيريك والبنات لمصيرهم قصد تجنّبه، وعن نقطة الضعف لاستغلالها في رحلة استرجاع حريّتي، وما سُلِبَ منّي من كرامة.

ويجب أيضاً أن أتعلّم، وهذا أمر لا مندوحة عنه، كيف أسيطر على نفسي، وأنتظر دون أن يبدو منّي ما يشي بأن أمنيتي تعذّبني.

لا ريب أنّ الطّريق سيكون طويلاً جداً، وشاقاً يكلّفني كبير جهد...

٣

ضَوْ الصْباحْ، شَمْس الضْحَى، قوتْ القْلوبْ، مْسْكْ اللّيلْ، لُبانَة، جوهَرَة، الْيَاقوتْ، مَرْجانَة، فْتْحْ الزْهَرْ هنّ بقيّة البنات، وأسماءهنّ ليست حقيقية، بل هي من اختيار سِيدْ العَابْدْ ولالّة كنزة. الوحيدة التي احتفظت باسمها من بينهنّ جميعاً هي أنا، وهذا من حسن حظي، لأنّني لا أقدر على تصوّر نفسي أعيش داخل اسم آخر!

لكن ماذا لو كنت أنا من مُنِحْتُ اسم ضو الصباح؟

أو مسك الليل؟

أو قوت القلوب؟

أو لُبانة؟

أو شمس الضحى؟

أو جوهرة؟

أو فتح الزهر؟

أو مرجانة؟

أو الياقوت؟

هل كنت لأبقى نفس الشّخص الذي أنا عليه الآن؟ أم كنت لأصير شخصاً آخر؟

إنّها أسماء جميلة فعلاً لكنّ من يستمتع بهذا الجمال؟

من ينطق بالاسم؟

أم من سُلِب منه اسمه الحقيقي؟

أعتقد أن الأوّل هو من يتلذّذ به عند المناداة، ويتفاءل بما يكتنزه من بهاء بين طيّاته.

ولكن لماذا غيّروا أسماء البنات من الأساس؟

ربّما عمدوا إلى ذلك حتّى يجعلوا منهنّ أشخاصاً لا ماضي لهنّ؟ وربّما يريدون طمس الهوية الأولى، ومنح روح جديدة، تقبل

بالذّلّ والهوان، وتسبح بهناء في يمّ الاستعباد؟

إذا صحّ ما أفترضه، وكان له تأثيره الفعليّ في تغيير النّفوس، فقد أخطأ سِيدْ العَابْدْ عندما قرّر الاحتفاظ باسمي الحقيقي.

وإنّني لأتشرّف بالاسم الذي سمّاني به أبي، اسم والدته رحمها الله تعالى.

أبي!

أين أنا من لمسته الدّافئة؟ وحكاياته السّاحرة؟ وغضبه الممزوج بالعطف؟ وحضوره الباعث على الاطمئنان؟ وصوته الدّال على الأمان؟

أين أنا من إخوتي؟

أين أنا من حياتي؟

أين أنا من واحتي؟

أين أنا من أمّي، نهر الحنان الجاري بلا توقّف، وأين أنا من أغانيها؟

وآنا فوادي طاري لو شي ما هو عادي

من عزت كمية

بَكْمَ طَرْشَ عَدْتْ أُ عَمْيَ

وَمْنينْ نْصَلّي

يَحْجَلّي وَنْعَلْ مَّلِّ...

آه من ألحانك وشدوك يا أمّاه!

يجب أن أتوقّف حالاً، وأستمرّ في عدم التّفكير فيهم، وبكلّ ما يتعلّق بهم.

سأطرد الماضي من نفسي، وأُمِيتُهُ إلى حين، وأهيل عليه تراب النّسيان، وأركّز فقط على مواجهة الواقع كما هو.

إنّني أعيش حياة، لا تشبهني في شيء، وجب التخلّص منها وِفْقَ ما أخطّط له.

وهذا حق سأتمسّك به تمسّك الرضيع بثدي أمّه.

٤

لم يتصرّم وقت طويل حتّى بدأت دمّاحة ترْسِلُ إشارات توحي بأنّها شرعتْ تندمج في نسيج الحياة اليومية داخل دار سِيدْ العَابْدْ، وبأنّها صارتْ تنصهر شيئاً فشيئاً في بوتقتها، دون أن تغفل، ولو لدقيقة، أنّها لا تنتمي إلى تلك البيئة أبداً.

أبدتْ فطنتها من أوّل وهلة، فاستأنست سريعاً بالجلاسة والمرمة والإبرة والقماش، وأخذت تخطو بحذر في عوالم طرز الغرزة وأصوله، ناشدة - في العلن دون السّر- التمكّن من اللّبنة التي لابدّ منها، ثم الانتقال إلى الكمال والاتقان النّموذجي الذي ما برحت دادا مسيعيدة توجّهها إليه بحسّها وذوقها الرّفيع في هذه الصّنعة، واهبة إيّاها أسرارها بغير كتمان أو تحفّظ يترك لها الامتياز.

وقد كان لدادا مسيعيدة مذهبها الخاص في التّعليم، تمنح كلّ شيء

باقتراح جاف ونصح شديد اللّهجة، وتترك المجال مفتوحاً أمام الاكتشاف والإضافة البديعة.

ثمّ ضبطت أسماء الألوان، بحسب اللّهجة الفاسية، دون عناء يذكر، وصارتْ تميّز بين درجات اللّون الأصفر(الخابوري، والزّيواني، وقلب البنانة، والسّمني)، وبين درجات اللّون الأزرق(امنيل، والبحراوي، وازريرق، وزرق اللّيل، وراس الوقيدة، والزنجاري، والشّيبي)، وبين درجات اللّون الأخضر(الخزّي، والزّيتي، والكاكي، والقصبي)، ودرجات اللّون الوردي(الزبطي، والزبيطي سخفان، والفنيدي)، وألوان أخرى كالقوقي، والحجري، والمدادي، والعَكْرِي، ودم الغزال، وشعر الجمل، والفاخثي، والفاري، والحليبي، والقرفي، وقلب الحموصة، والكاموني، والعسلي، والمسكي، والجاجي، والتربي، والنحاسي، والذهبي، والنقري، والقسبوري، والقرعي، والفجلي، واللتشيني، والخرشوفي، والرّمّاني...

وبعد ذلك أسماء أفراد العائلة، فالأب هو بابا، والأمّ هي يمّا، والجدّ هو بّاسيدي، والجدّة هي مّي لالّة، والأخت الكبرى هي لالّة خيتي، وأخ الزّوج هو اللّوس، وأخت الزّوجة هي اللّوسة، والخال هو حبيبي، وزوجة أخ الزّوج هي النوطة، والحفيد هو الحفيض، وابن الحفيد هو اللبيط، وحفيد الحفيد هو مسمار الميدة، والحفيد

الخامس هو دقاق الوتد، وزوجة العم هي عوينتي...

وفي وقت لاحقٍ شرعتْ في الاطلاّع على أسرار أهمّ الأطباق والحلويات، تلك التي تقدّم للضّيوف خاصّة، وتعلّم أساسيات تقطير الزّيوت العطرية، وحفظ بعض الأشعار، ومعاني الأمثال الفاسية...

وهكذا طَفِقَتْ تتّضح أمامها معالم التّكوين الذي حدّثتها عنه دادا مسيعيدة بادئ الأمر، والذي تعتبره محدّداً أساسياً لا تكتمل شخصيّة الخادم إلاّ به، دون أن تتضّح لها أمور أخرى!

وما استرعى انتباهها، بعد عدّة محادثات قصيرة وسطحية مع جميع البنات، هو تحفظهنّ عن الحديث عندما يتعلّق الأمر بمدّة التواجد في دار سِيدْ العَابْدْ، ففهمت أنّ الأمر يتعلّق بموضوع من الأفضل عدم التداول فيه، على عكس فكرة الحصول على سيّد جيّد بعد انتهاء مدّة التّكوين التي كانت تشغل كيانهم طوال الوقت.

أمّا ما تيقّنت منه فهو وجود عين تراقب كلّ حركة تصدر عن الخدم، وأذن تصغي بإمعان لذبذبات كلّ نقاش تدور رحاه بينهنّ أيضاً.

إنّها عين داد مسيعيدة التي لا تنام، وأذنها التي ترهف السّمع بلا انقطاع.

٥

إنّ أهمّ ما سعيتُ إليه، وعن وعي تامّ، هو محاولة معرفة قصّة دادا مسيعيدة، ما دُمْتُ لن أجني شيئاً من بقيّة الفتيات الحذرات دائماً. وقد وجدت سهولة تامّة في محاولتي للتّقرّب منها، لأنّها وببساطة كانت مهتمة بذلك أكثر منّي.

في إحدى اللّيالي، وبينما كنّا نتهيّأ للنّوم، سألتها قائلةً:

- داداً؟ هل اسمك الحقيقي هو مسيعيدة؟

فابتسمت قليلاً، وصاحت:

- بل مسعودة هو اسمي الحقيقي.

- ومسيعيدة هو تصغيره؟

- تماماً.

- ولقبُ دادا متى حصلتِ عليه؟

- قبل خمس أو ست سنوات تقريباً.

- وما دلالتُهُ؟

- إنّه يدلّ على المكانة التي أحتلّها في الدار.

صَمَتَتْ دادا مسيعيدة وهلةً، ثم أضافت بفخرٍ واعتزازٍ:

- اقشعرّ بدني لحظة ناداني سِيدْ العَابْدْ بلقب دادا لأوّل مرّة، واغرورقت عيناي بالدّموع، وأنا أحاول استيعاب ذلك.

لقد كانت شهادةً منه أنّني بلغتُ مرحلة النّضج القصوى التي من الممكن لخادم أن تصل إليها، واعترافاً باجتهاد لم يتوقّف منسوبه، ولم يخفت للحظة واحدة.

- لاريبَ أنّ هذا أضاف إليكِ واجباتٍ جديدة؟

- طبعاً.. طبعاً، فمنذ تلك اللّحظة صرت المشرفة العامة للبيت، وحصلت على جميع مفاتيح الدّار.

- اعذريني يا دادا، لأنّني سأسألك هذه المرّة عن أمر ربّما فيه إحراج لك؟

رفعَتْ إليّ دادا عينين مستفسرتين، فقلتُ من فوري:

- هل سبق وتزوّجتِ؟

ضحكت دادا مسيعيدة فبدَتْ وكأنّها كانت تتوقّع سؤالاً آخر، ثمّ قالت:

- أجل.

بينما بقيتُ أحيطها ببصري أسألها معرفة المزيد.

- زوّجني والد سِيدْ العَابْدْ رحمه الله تعالى بعبد كان هنا قبل مجيء مبيريك.

- وأين هو الآن؟

- فرّ ذات فجر.

- فرّا! قلتُ بذهول.

- نعم، ومنذ ذلك الحين لم نعثر له على أثر.

- ولماذا فعل ذلك دونك؟

- راح يجرّب حظّه مرّة ثانية في أن يصير أباً.

- قصدك...

- لقد شاءت الأقدار الإلهية أن أحرم من نعمة الأبناء، فلم أرزق منه بأي طفل. وكم تمنّيتُ ذلك دون أن أبلغه!

- وهل أطلعكِ برغبتِهِ في الهروب من قبل؟

- لم يكن بحاجة إلى ذلك. لقد رأيتُ ذلك في عينيه، وشعرت به في تقطّع أنفاسه، وسمعته من نبرة صوته.

وأمام ركوني للصّمت، زادت دادا مسيعيدة تقول:

- إنّها أحكام إلهية في نهاية المطاف. رضيتُ بها عن طيب خاطر، فعوّضني سبحانه وتعالى بأن زرع محبّة أبناء سِيدْ العَابْدْ في قلبي.

إنّهم أبنائي جميعاً، وبدون استثناء. أنا من ربّيتهم، حملتهم فوق ظهري، وضممتهم بين أحضاني، دون أن أتعب هُنَيهةً أو أتذمّر أو أشعر بالملل.

صفنتُ لبرهة، ثمّ انتقلتُ لنقطة أخرى كنتُ مهتمّةً بمعرفتها:

- وأين وُلِدْتِ يا دادا؟

ارتخت دادا مسيعيدة في مجلسها قبالتي، وقالت:

- لم تطأ قدماي مكاناً غير فاس، فأنا لم أمشِ في دروب

غير دروبها، ولم أستنشق هواءً غير هوائها، ولم أعرف مكانا أدفأ من دار سِيدْ العَابْدْ، فهنا عاش والدي يسهران على خدمة أباء سِيدْ العَابْدْ، وهنا أعيش وأسهر على خدمة سِيدْ العَابْدْ ولالّة كنزة وأبنائهم، وإنّني أشكر الله تعالى أن جعلني أحيا هنا.

وإذ فرغَتْ من كلامها، صاحت بي قائلة:

- هل تذكرين ما علّمتُكِ اليوم من أمثال أهل فاس؟

وكان من عادتها، قبل النّوم، أن تراجعني فيما تتقاسمه معي نهاراً.

- أعتقد ذلك.

- لمن تقال «الفْشوشْ ومَرق غْلالْ»؟

- لمن يتكبّر ويتبختر أمام النّاس، وهو في الحقيقة فقير معد م .

- ولمن تقال «ضياف عند الدجاج»؟

- لمن لا يحسن الضّيافة.

- ولمن تقال «عامل بحال البرطال، يشرب من الحصّة ويبات فالعرصة، سر سر يا غزالي»؟

- لمن لا يقدر على الواجب والالتزام.

- ولمن تقال «سيدي بهلول فمّو محلول»؟

- للسّاذج والأخرق.

- أحسنتِ يا دمّاحة! أحسنتِ! أحسنتِ! إنّك تتقدّمين بشكل مذهل!

٦

في دار سِيدْ العَبْدْ، الباب والحلقة في الأعلى، هما صلتا الوصل الوحيدتين بالعالم الخارجي، ولولاهما لتحوّلت الدار إلى قبر.

الرؤية من الباب ممنوعة، يحرسها مبيريك في كلّ الأوقات، في حين يُسْمَحُ بالتطلّع إلى السّماء في الأوقات التي لا شُغْلَ فيها.

وكنتُ بحاجة إلى لحظة راحة، بعد صباح شاقٍّ بذلنا فيه كثير جهد، فاستكنتُ، ووقفت وسط الفناء، ثمّ رفعت بصري باتجاه السّماء، أحدّق إليها بعيون لم تعد ترى إلاّ أشكالاً هندسية ميّتة.

بالأمس، كنت في كلّ مرّة أنظر إليها أرى شمسها نهاراً، وقمرها ليلاً. على عكس اليوم، شمس يُستشعرُ وجودها ويُرى شعاعها دون قرصها الوهّاج، وقمر حزين يرسل نوره في تواضع لا يليق بسلطانه.

تسمّرتُ في مكاني أتطلّع إلى الأعلى، فجعلتُ أقلّب كلام دادا مسيعيدة كَرّةً أخرى، كلام اللّيلة الفائتة، وقد تنامت قناعتي، أكثر من ذي قبل، في ضرورة السّعي وراء الخلاص بأيّ شكل من الأشكال.

إنّها تؤكد على عدم معرفة حياة أخرى غير هذه الحياة.

وهذه نقطة الاختلاف بيننا، فأنا لديّ موطن يجب أن أعود إليه، ولديّ حياة تشبهني يجب أن أسترجعها.

أنا حرّة بنت حرّ.

أنا بنت الرّحابة التي لا حدود لها، والنّخلة الكريمة المعطاء.

أنا بنت الخطّارة والواحة.

من المفروض أن أنصت لدواخلي، ولا أخضع لما تراه العين، لأنّه زائف يضارع السّراب في خداعه.

لن أركن، ولن أقنع بهذا القدر اللّئيم أبداً، ولن أكتفي بالتّفرّج.

لا محبّة ممكن أن تقوم بين السّيّد والعبد، الأوّل قاهر والثّاني مقهور، فكيف يستقيم الشّعور في مثل هكذا وضع؟ كيف؟

كيف؟

الخوف..

نعم الخوف هو الحاجز الذي يجب أن يكسر.

لكن بأي طريقة؟

هذا ما ينبغي الاهتمام بتفاصيله جيداً.

وغمرني، كنسمة هواء منعشة، شدو عصفور حطّ يرتوي من ماء النّافورة المتدفّق، فاستنفرت كلّ قواي لاحتضان بهاء حضوره، وما هي إلاّ لحظة تمضي حتّى سَرَت بهجة جذلة في خلجات روحي سريان النّسيم العليل بين أكاليل الزّهور، واجتاحتني رغبة في البكاء!

رفرفْ! رفرفْ، واهرب من هنا ما دمتَ تملك جناحين!

ولا يغرنّك جمال النّقوش والزّخارف والأقواس، التي تملأ كلّ شبر من الدّار. إنّه سجن، حتّى لو كان كلّ ما تراه عيناك ذهبا، سيخرس فيك الغناء، ويميتك كما يشتهي.

(في الحقيقة أنا لا أنكر هذا الجمال، غير أنّني أجده باهتاً.

ربّما لأنّني أَلِفْتُ رؤية الألوان والأشكال على حقيقتها، وهي تجلّل أطراف الطبيعة التي أوجَدَتها؟

وربما لأنّني أراه جمالاً مسجوناً مثلي؟ أو متكلّفاً زيادة عن اللّزوم مثل حياتهم؟)

ابتعد يا صغيري فحياتك لا تكون حياة إلاّ في الهواء الطّلق!

وكأنّه سمع همسي!

حلّق العصفور، وطار مبتعداً، فأشاع خفق جناحيه في جوّي الارتياح كمن أشرق بيانه بعد انقطاع.

آه لو تحملني فوق ظهرك يا أميري الوسيم، وتطير بي إلى واحتي، فأجري في جنباتها كلّما أردت، وأغفو في أحضانها كلمّا تعبت، وأداعب حشود أعشابها كلّما اشتهيت!

ولم أدرِ لماذا تذكّرتُ فجأة نوّارة!

تلك المرأة التي التقيت بها في مرّاكش.

لا أعلم ما الذي جذبني إليها من أوّل لقاء!

نظراتها كانت مليئة بالوجع، بالرّغم ممّا كان يرتسم على محيّاها من أريحية.

في حلقها غصّة لا تمّحي، وبداخلها جمرة تنبض بدماء الحرقة الخانقة للأنفاس، هكذا كانت تبدو وهي تكلّمني. حاولَتْ جاهدة

أن تحتمي بمظهر حازم لا عاطفة ذاتية تظلّله، ومع ذلك لم تقوَ الظّروف التي جمعتني بها أن تحجب صفاء سريرتها الذي تسرّب إلى مهجتي بلا استئذان.

كان فيها شيء من الأمومة، والتّعاطف الحقيقي النّابع من الإحساس الصّادق بمعاناة الآخر.

الآن أدرك معنى ما أوصتني به نوّارة، وأعتقد أنّه يتحتّم عليّ العمل بنصيحتها.

بعد خلاصي من هذا السّجن، سأعود عندها لتساعدني على إيجاد طريق العودة إلى موطني. لكن قبل ذلك ينبغي أن...

- دمّاحة!

أخرجني صوت دادا مسيعيدة ممّا كنتُ فيه، فسعيتُ صوبها بخطى متسارعة.

- خذي طعام الغداء لمبيريك؟

صاحت بي، وهي تمدّ إليّ صحن الطّعام وكسرة الخبز، فأجبتها وقد تبرعمت أمامي فرصة سانحة لمحاورته قليلاً:

- حاضر!

دخلتُ عليه بعد استئذان، فوجدتُه منشغلاً ببعض خيوط الدّوم، يصنع منها شيئاً لم تتضّح معالمه بعد، فبادرته قائلة:

- مرحباً!

تطلّع إليّ مبيريك، وقال:

- أهلاً بدمّاحة! يبدو أنّ دادا صارت تعهد إليك مزيداً من المهمّات؟

- ليس كثيراً! لكنّ منسوب ثقتها بي أخذ يتنامى شيئاً فشيئاً .

- وهذا من فطنتكِ وحسن إصغائكِ. يسعدني أنّك بدأتِ تندمجين معنا.

- (أمّا أنا فيخزيني أيّها الرّجل الطيّب).

بلعتُ هذه الكلمات، وبعد لحظات صمتٍ، قلت لمبيريك:

- إذا سألتُك من أنتَ، فَبِماذا تجيبني؟

ابتسم مبيريك ذاهلاً، وقال:

- أنا العبد مبيريك، ملك يمين سِيدْ العَابْدْ!

ثمّ أردف في شيء من التهكّم:

- وهذا لا يخفى على أحد في مدينة فاس.

- وهل امبيريك هو اسمك الحقيقي؟

- بل هو واحد من أسمائي التي ظلّت تتغيّر بعد كل عملية بيع، بحسب هوى مالكي وسيّدي الجديد.

- ومعناه أنّك لُقّبت بأسماء شتّى؟

- منها بلال وفاتح وبلخير وفراجي ومعطى الله...

- وما حكاية النّدبين على وجهك؟

تلمّس مبيريك النّدبين على وجنتيه بحركة بطيئة، ثم قال:

- إنّني أنتمي إلى فئة «العبد المشرط الحناك».

- فئة!

- نعم.

- ؟

- إنّ العبيد في فاس ينقسمون إلى فئات عدّة، فهناك من هم من سلالة عبيد البخاري، وهناك من هم من سلالة الهوسا،

وهناك من هم من سلالة الونغاري...

توقّف مبيريك لحظة، فمدّ يده للصّحن، وأضاف بصوت امتزج فيه المضغ بالكلام:

- في القبيلة التي وُلدتُ فيها كان من عادات أهلي هناك أن يقوموا بإحداث جرحين في وجه الرّضيع الحديث الولادة، ووضع سمّ قويّ فيهما لاختبار قوّة تحمّله، فإن هو عاش فهنيئاً لهم برجل أو امرأة قويّة، وإن مات فذلك قدره لوحده.

أطرقتُ قليلاً، ثمّ عمدتُ إلى توجيه سؤال مباغت ومباشر، فقلتُ:

- كيف هرب زوج دادا مسيعيدة؟

توقّف مبيريك عن المضغ، فطفق يرمقني بنظرات استغراب، وقال:

- زوج دادا مسيعيدة؟ هرب؟

- نعم!

ارتسمت على ملامح مبيريك ضحكة غريبة، ثمّ قال وقد تبدّلت نبرته:

- لم ولن يسمح سِيدْ العَابْدْ بالتواجد الدّائم لرجل وسط

حريمه.

- وأنت؟ ألستَ رجلاً؟ ألست تقيمُ هنا بشكل دائمٍ؟

فقال في استنكار:

- أنا؟

- أجل!

أحنى بصره وقال بتشظٍ:

- أنا رجل معطّل الرّجولة.

- دمّاحة! دمّاحة! أين أنتِ؟ هتفت دادا مسيعيدة بأعلى صوتها.

فأجبتها دون إبطاء، وأنا أغادر غرفة مبيريك المجاورة لمدخل الدار.

- أنا هنا دادا!

- ماذا كنتِ تفعلينَ هناك كلّ هذا الوقت؟

- جلبتُ الطّعام لمبيريك كما أمرتِ بذلك، وجلست بقربه قليلاً أتحدّث معه.

- يبدو أنّك ثرثارة بعض الشّيء يا دمّاحة!

- لستُ كذلك على الإطلاق دادا.

قلتُ هذا مبتسمة في وجهها بودّ، ثم لحقت بها إلى المطبخ وأنا أحدّث نفسي:

- هل يمكن أن يكون مبيريك صادقاً في قوله، وتكون بالتالي دادا مسيعيدة كاذبة في كلّ ما روته لي، أو على الأقل في أجزاء منه؟

ثمّ ما الذي عناه بقوله أنّه رجل معطّل الرّجولة؟

هناك قطعة ناقصة!

والأجدر أن أحرص على أخذ الطّعام إليه ما أمكنني ذلك لمحاولة كشفها.

٧

بسبب ألم مفاجئ في بطنه تخلّف مولاي إدريس بضعة أيام عن حلقة الدّرس. وبعد تعافيه مباشرة دعا زميله في الجامعة يوسف ليتقاسم معه ما فاته من دروس، وما كان منه إلاّ أن أبدى موافقته الفورية، فحمل بعض الأوراق، ولحق بمولاي إدريس إلى دار سِيدْ العَابْدْ.

وكان يوسف واحداً من الطلبة الغرباء عن فاس، حديث العهد بها، يقطن في إحدى حجرات مدرسة الصفّارين إلى جانب زميلين آخرين، ويحصل منها فقط على الماء الصّالح للشّرب والخبز كلّ يوم.

وبما أنّ أسرته فقيرة، ولا مؤونة تملكها حتّى تبعث إليه بالقليل منها، فإنّه كان يهتّم بأمر قوتِه بنفسه، شأنه في ذلك شأن جلّ

الطّلبة الدّاخليين بمدرسة الصّفّارين، والعطّارين، والمصباحية، والشّرّاطين، ومدرسة باب عجيسة، ومدرسة مولاي عبد الله، فكان يعمد إلى قراءة القرآن في مقابر فاس يوم الجمعة مقابل قدر من المال!

عند الباب وجدا مبيريك في مكانه جالساً. تفرّسهما بنظراته، ثم سأل مولاي إدريس قائلاً:

- إلى أين مع هذا الشّاب الأنيق؟

- هذا يوسف، زميلي في القرويين. جاء لنناقش ما فاتني من دروس أثناء فترة تغيّبي القاهر.

- وهل هذا في عِلْمِ سِيدْ العَابْدْ؟

- طبعاً في علمه!

- إذا كان الأمر هكذا فمرحبا به.

- شكراً لك.

قال يوسف مبتسماً في وجه مبيريك، فولج خلف صديقه.

لم يستطع يوسف أن يخفي انبهاره بتفاصيل الدار، فهمس في أذن مولاي إدريس، وهما يصعدان الأدراج إلى الأعلى:

- أنت تعيش في قصر يا رجل! أكاد لا أصدّق أنّ الجدران الرمادية الجرداء التي بالخارج تحتضن كلّ هذه الرّوعة!

ارتسمت على وجه مولاي إدريس ابتسامة رائقة، قبل أن يصيح بصديقه:

- لا تحكم على دور فاس من جدرانها المجروحة.

- إنّ هذه الزخارف المعمارية تفوق بكثير ما شاهدته في جامع القرويين، وجامع الأندلس!

- لا أعتقد ذلك! تفضّل! هذه غرفتي.

- غرفتك لوحدها تضارع مدرسة الصفّارين بأكملها!

- لا مجال للمقارنة بينها وبين مدرسة تاريخية يا يوسف.

- تاريخية! يا أخي ليذهب التّاريخ ومن دوّنه إلى الجحيم. الغرف هناك ضيّقة ضيقاً شديداً، ومع ذلك ينام فيها ثلاثة أشخاص، وأحياناً أكثر، وفيها نطبخ، وندرس، ونستقبل الأصدقاء أيضاً.

- تحدّثني وكأنّني لم يسبق لي أن وضعت قدماي فيها. يا أخي من هناك جئنا إلى هنا!

- ما أجمل هذا البساط! وهذه السّجاجيد المختلفة الأشكال!

- المهمّ أن يتعلّق المرء بطلب المعرفة والعلم، هذه مجرّد فترة دراسية وتنتهي.

وبينما أطرق يوسف للحظات، واصل مولاي إدريس قائلاً:

- ما يجب التّفكير فيه هو متى نُتْلَى على مسامعك الكلمات التّالية: على شرف العالم يوسف نكتب هذه الأسطر اعترافاً منّا أنّه قد حصّل معرفة تخوّل له حقّ التدريس باسمنا، وإنّنا نطلب منه اتباع منهجنا وتقديم ما تعلّمه معنا.

- يا سلام! إنّ مجرّد التّفكير في هذه اللّحظة يصيبني بالرّجفة فما بالك عيشها! لكن يا صديقي أنا لا أريد أن أصير أستاذاً في القرويين، أريد أن أشغل منصب كاتب القائد عند أوبتي إلى قريتي.

- يا أخي احصل على شهادة التّخرّج أوّلا، وبعد ذلك اصنع بها ما تشاء.

- صحيح.. الشهادة أوّلا وأخيراً.

- والآن هل جئنا لنضيّع الوقت في الكلام فقط؟

- كلاّ يا صديقي.. كلاّ. دعنا نباشر عملنا.

- لكن قبل ذلك، دعنا نحصل على كأس شاي منعنع.

- كما ترى!

- دادا! دادا! كأس شاي من صنع يديكِ لم سمحتِ؟

٨

في اللّيل كان من المبرمج أن يقيم سِيدْ العَابْدْ عشاءً على شرف صفوة من أصدقائه، العشّاب عيسى المدغري، والصوّاف محمد الهنّاي، والخيّاط عبد الكبير الودّاج.

وكما هو معهود فإنّ الدّار، في مثل هكذا مناسبات، تتجهّز بما يتماشى ومستوى الضّيوف.

قُبيل المغرب، وفي القاعة المخصّصة لضيوف سِيدْ العَابْدْ، بُثّت الأرائك تحت القناديل النحاسية، وبُسِطت الزّرابي، ووُضِعت المبخرة في مكانها المعتاد، ووقفت الفتيات بحسب ما أملته دادا مسيعيدة عند مدخلها، فتح الزهر تحمل المجمر، ومرجانة تحمل الفحم، وشمس الضحى تحمل المنفاخ، والياقوت تحمل الصّينية عليها الكؤوس والبرّاد، وقوت القلوب تحمل علبة السّكر وعلبة

حبوب الشّاي.

- فور وصول الضّيوف ستدخلين يا دمّاحة أوّلاً، ومعكِ الإبريق والطَّسْت والمنشفة.

- حاضر!

- وأنتنّ سَتَلِجْن تباعاً عندما ينادي سِيدْ العَابْدْ على الشّاي. مفهوم!

صاحت دادا مسيعيدة بالفتيات، فحرّكن رؤوسهنّ دلالة الموافقة.

وكان من عادة سِيدْ العَابْدْ أن يحضّر الشّاي بنفسه لأصدقائه، تعبيراً عن التّرحيب المطلق وحسن الضّيافة.

وغير بعيد كانت لالّة كنزة تراقب التّرتيبات.

- وماذا بخصوص بقيّة الفتيات يا دادا؟

سألت لالّة كنزة، وقد تقصّدت رفع صوتها حتّى يسمعه سيد العابد لتبصم على حضورها في الإشراف.

- هؤلاء سيتكلّفن بالعشاء وما بعده.

- اتركي لهنّ مهمّة ما بعد العشاء فقط.

- أمرك لالّة!

فقالت لالّة كنزة، وهي تتجه صوب غرفتها، حيث كان سِيدْ العَابْدْ يرتدي ملابسه ويستعدّ للخروج:

- اهتمّي بالموشّحات الآن!

- أمرك لالّة!

ردّت دادا مسيعيدة، فصاحت بجميع الفتيات قائلة تطلعهنّ على البرنامج المعدّل:

- استقبال الضّيوف سأسهر عليه شخصيّاً، وغسل اليدين لدمّاحة، أمّا الشّاي والعشاء فسيعهد به إليكنّ (وأشارت إلى فتح الزهر ومرجانة وشمس الضحى والياقوت وقوت القلوب)، وأمّا جلسة ما بعد العشاء فستكون من نصيبكنّ (وأشارت إلى ضو الصباح ومسك اللّيل ولبانة وجوهرة).

فتحرّكت الرّؤوس موافقةً، بينما واصلت دادا مسيعيدة تقول:

- فلتهتمّ المجموعة الأولى بشؤونها، على أن نستأنف استعدادات العشاء لاحقاً! ولتجلس المجموعة الثّانية قبالتي، سنردّد الموشّحات!

- هل الأمور تسير على ما يرام بالخارج؟

سأل سِيدْ العَبْدْ لالّة كنزة.

- كلّ شيء في محلّه، وكما تشتهي له أن يكون.
- سأعود بعد صلاة العشاء مباشرة، ومعي الرّجال.
- ستجدنا في انتظارك وضيوفك.

٩

- أهلاً وسهلاً بضيوف سِيدْ العَابْدْ الكِرام.. أهلاً وسهلاً.

هتفت دادا مسيعيدة وهي ترشّ قطرات ماء الورد على المدعوين بحبورٍ وابتسامة مشرقة، ثم استتلت:

- تفضّلوا من هنا.. تفضّلوا.. تفضّلوا...

تنسّم الرّجال الرائحة الزّكيّة فهتفوا:

- بارك الله فيك يا دادا..

- ومتّعك بموفور الصّحة والعافية..

- وحفظك من كل سوء..

وما أن طافت كؤوس الشّاي وأطباق الحلوى على الضّيوف، حتّى انبرى الخيّاط يستفسرُ سِيدْ العَابْدْ عن حال ابنه مولاي

إدريس قائلاً:

- بلغنا أنّ مولاي إدريس كان طريح الفراش، أين هو؟ وكيف حاله الآن؟

- إنّه في جناح الحريم على الأرجح. قال الصّوّاف ساخراً، فتعالت الضحكات.

- حتّى المرض لم يسلم من مزاحك!

ردّ سِيدْ العَابْدْ ممتعضاً من ثقل دم صديقه، فقام ينادي على ابنه:

- مولاي إدريس! مولاي إدريس!

- يبدو أنّك أزعجته بكلامك. انظر إلى امتقاع لونه! همس الخيّاط في أذن الصّوّاف.

- منذ متى ونحن نضرب الحساب لكلماتنا قبل النّطق بها في مجلسنا! ليس جديداً عليه مزاحي سيتقبّله.

- راقب كلامك جيداً عندما يتعلّق الأمر بهذا الموضوع، فالرّجل لا يملك إلاّ هذا الولد.

على عجلٍ لبّى مولاي إدريس النّداء، ودخل على جماعة والده يتعثر في خطاه.

- ما شاء الله! ما شاء الله! حمداً لله على قيامك بالسّلامة يا ابني. هتف العشّاب بلهجة دافئة.

- سلّم على أعمامك يا ولد!

نده سِيدْ العَابْدْ ابنه، فراح الأخير يلثم اليد تلوى الأخرى، وقد ظهر عليه الارتباك جليّاً.

- بارك الله فيك يا بنيّ. بارك الله فيك! دمدم الصّوّاف.

- أنار الله دربك يا بنيّ وأبعد عنك كل مكروه. زاد الخيّاط.

اكتفى مولاي إدريس بالصّمت والاستسلام لخجله، فانتصب واقفاً غير بعيد عن الباب.

- في أيّ سنة هو الآن؟

نظر سِيدْ العَابْدْ إلى ابنه، وبإشارة من حاجبيه أمره أن يجيب على سؤال العشّاب.

- السنة الختامية عمّي عيسى.

- ما شاء الله الرحمن الرحيم!

- قل لعمّك عيسى ماذا تدرسون في القرويين؟

وكان سِيدْ العَابْدْ يصبو إلى لفت انتباه العشّاب إلى ابنه، لأنّه كان مقتنعاً بأنّ طريق وصول مولاي إدريس إلى كراسي جامعة القرويين ستمرّ من خلال صهره قاضي فاس.

يتطلّب الأمر، بعد الحصول على شهادة مكتوبة من عدّة علماء يشهدون فيها بأحقيّة التّدريس في الجامعة، إرسالها إلى السّلطان حتّى يوجّه ظهيره إلى القاضي يأمره فيها بالسّماح له بشغل منصبه كأستاذ رسمي. والوحيد القادر على هذا، من بين جميع أصدقاء سِيدْ العَابْدْ، هو العشّاب عيسى المدغري.

ممتثلاً لأمر والده صاح مولاي إدريس قائلاً:

- ندرس **الحديث**، والكتاب المعتمد هو صحيح البخاري. **وأصول الفقه**، والكتب المعتمدة هي مختصر سيدي خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني والمرشد المعين لابن عاشر وتحفة ابن عاصم. وندرس **النحو**، والكتابان المعتمدان هما الآجرومية والألفية. وندرس **القضاء والأحكام** بالاعتماد على التّحفة ولامية الأفعال. والأدب من خلال قصيدتي البردة والهمزية. بالإضافة **إلى البيان، والمعاني والبديع، والمنطق، والعروض، والحساب والتّوحيد.**

- إذن لم يتغيّر البرنامج. عقّب العشّاب.

- لا عِلم لي كيف كان من قبل عمّي عيسى.

- هذا هو البرنامج المعتمد حرفياً منذ زمن بعيد يا ابني.

- وفّقك الله وأعانك يا بنيّ. هتف الخيّاط، قبل أن يدمدم الجميع قائلين:

- آمين يا ربّ العالمين.

- هل أكرمت وفادة الصّديق الذي زارك اليوم؟ سأل سِيدْ العَابْدْ ابنه.

- فعلتُ كما أمرتني.

- يمكنك العودة إلى غرفتك حيث تراجع دروسك!

- حاضر أبي!

قال مولاي إدريس ذلك بصوت ضعيف كالهمس، ثم انصرف.

- من يكون هذا الصّديق؟

سأل الخيّاط بفضول فور انصراف مولاي إدريس.

- واحد من الطلبة الدّاخليين بمدرسة الصفّارين، جاء

ليتقاسم معه ما فاته من دروس خلال غيابه.

- ولِمَ تسمح لابنك أن يختلط بهؤلاء الآفاقيين القادمين من الجبال والقرى النّائية؟ عقّب الصّواف مستغرباً.

- السّيد محمّد لا يصحّ هذا الازدراء أبداً! قال العشّاب بلهجة عتاب.

- لكن أليس صحيحاً أنّهم ذوو طباع خشنة، يمتازون بالانتهازية وسوء السّلوك؟

- إنّهم شباب جامحون، ولا عجب أن تصدر عنهم بعض السّلوكيات المنفلتة بين فينة وأخرى، لكن في جميع الأحوال هم طلبة وجب الاعتناء بهم، وحسن معاملتهم، وتقدير التّضحيات وما يتكبّدونه من شقاء في سبيل تحصيل العلم، كما أنّ لمستهم الروحية على المدينة يصعب تجاوزها.

صمت العشّاب لحظة ثمّ أضاف:

- هل نسيت أنّ الطّارق الذي يسأل طمعاً في العلم لا يُزجر؟

- طبعاً لا يُزجر، فأنا لا أنكر هذا، بقدر ما أريد أن أنبّه إلى

خطورة انتقال بعض طباعهم السّيّئة إلى نفس مولاي إدريس المطبوعة بحسن الخلق.

- لا أجد حرجاً في أن يختلط ابني بمن يراه مناسباً له، حتّى لو كان من الطلبة الوافدين على فاس.

- عجباً كيف تقول هذا الكلام وأنت سليل أسرة أندلسية عريقة وارثة لحضارة مُشِعَّةٍ حملت الرّقيّ لمدينة فاس!

- دعونا يا جماعة من هذا السّجال! أليس الوقت منسباً للاستمتاع ببعض الألحان؟

قال الخيّاط محاولاً وضع نقطة نهاية لنقاش رأى أنّه من المحتمل أن يتطوّر إلى الأسوأ، ويفسد بهاء اللّيلة على الجميع.

- بلى إنّه وقت ملائم. ردّ سِيدْ العَابْدْ فنهض ينادي على مبير يك .

- مبيريك! مبيريك! أحضر الآلات!

ولم تمضِ سوى لحظات حتّى دخل مبيريك، وراح يوزّع عليهم الآلات الموسيقية. تناول سِيدْ العَابْدْ العود أوّلا، فأخذ الصوّاف القانون، والخيّاط الرّق، والعشّاب النّاي.

- الجواري يا دادا!

صاح سِيدْ العَابْدْ، وهو يعدّل أوتار عوده.

فولجت الفتيات الأربع، ضو الصباح ومسك اللّيل ولبانة وجوهرة، ترفلن بغنج وتبختر، حتّى إذا توسّطن المجلس تعلّقت بهنّ الأبصار، وهشّت لمرآهنّ القلوب.

وكنّ على قدر وارف من الزّينة والتطيّب، يرتدين قفاطيناً من حرير، ويضعن أساوراً من ذهب، ويلبسن خلاخيلاً من فضّة.

- الأقداح يا دادا!

هتف سِيدْ العَابْدْ بقلب يتراقص فرحاً، ثمّ زاد محدّثاً جواريه:

- أيّها السّاقي إليك المشتكى!

فصدحن بصوت شجيّ متماهٍ مع عزف الرّجال:

أَيُّها الساقي إِلَيكَ المُشتَكى

قَد دَعَوناكَ وَإِن لَم تَسمَع

وَنَديمٍ هِمتُ في غُرّتِه

وَشَرِبت الراحَ مِن راحَتِه

كُلّما اِستَيقَظَ مِن سَكرَتِه
جَذَبَ الزِقّ إِلَيهِ وَاِتّكا
وَسَقاني أَربَعاً في أَربَع

...

أَيُّها الساقي إِلَيكَ المُشتَكى
قَد دَعَوناكَ وَإِن لَم تَسمَع
غُصنَ بانٍ مالَ مِن حَيثُ اِستَوى
باتَ مَن يَهواهُ مِن فَرطِ النَوى
خافِقُ الأَحشاءِ موهونُ القُوى
كُلّما فَكّرَ في البَينِ بَكى
ما لَهُ يَبكي لِما لَم يَقَع

...

أَيُّها الساقي إِلَيكَ المُشتَكى
قَد دَعَوناكَ وَإِن لَم تَسمَع

ما لِعَيني عَشيت بِالنَظَرِ
أَنكَرَت بَعدَكَ ضوءَ القَمَرِ
عَشِيَت عَيناياَ مِن طولِ البُكا
وَبَكى بَعضي عَلى بَعضي مَعي

...

أَيُّها الساقي إِلَيكَ المُشتَكى
قَد دَعَوناكَ وَإِن لَم تَسمَع
لَيسَ لي صَبرٌ وَلا لي جَلَد
يا لَقَومي عَذَلوا وَاِجتَهَدوا
أَنكَروا شَكواياَ مِمّا أَجِدُ
مِثلُ حالي حَقُّها أَن تَشتَكي
كَمَد اليَأس وَذُلّ الطَمَع

...

أَيُّها الساقي إِلَيكَ المُشتَكى

قَد دَعَوناكَ وَإِن لَم تَسمَع
كَبدٌ حَرّى وَدَمعٌ يَكِفُ
يَعرِفُ الذَنبَ وَلا يَعتَرِفُ
أَيُّها المُعرِضُ عَمّا أَصِفُ
قَد نَما حُبُّكَ عِندي وَزَكا
لا تَقُل إِنّي في حُبِّكَ مُدّع

...

أَيُّها الساقي إِلَيكَ المُشتَكى
قَد دَعَوناكَ وَإِن لَم تَسمَع
وَنَديمٍ هِمتُ في غُرّتِه
وَشَرِبت الراحَ مِن راحَتِه
كُلّما اِستَيقَظَ مِن سَكرَتِه
جَذَبَ الزِقّ إِلَيهِ وَاِتّكا
وَسَقاني أَربَعاً في أَربَع.

- يا سلام! هكذا يكون العزف! وهكذا يكون الغناء! صاح سِيدْ العَابْدْ بانتشاءٍ.

فقال الصّوّاف، وهو يمدّ قدحه الفارغ ناحية مبيريك:

- ما ألذّ خمرك أيّها السّاقي!

- لا تثمل بالكامل يا رجل، فلا عزف يستقيم دون قانونك! قال له العشّاب مقهقهاً.

- لا تخفْ على عزفي من السّكر، واخشَ عليه من الصحو!

نطق الصّواف ذلك، فارتفعت الضحكات تغشى المكان.

- ماذا تقترحون الآن؟

صاح سِيدْ العَابْدْ بالفتيات.

- لا اقتراح إلاّ اقتراحك.

ردّت عليه جوهرة، فأشار إليها بيدٍ تضمّ ريشة العزف بين أصابعها، وقال:

- تفضّلي يا جوهرة!

- جاءت معذّبتي؟

- جاءت معذّبتي.

غمغم سِيدْ العَابْدْ، فانطلق العزف ومعه الغناء:

جَاءَتْ مُعَذِّبَتِي فِي غَيْهَبِ الغَسَقِ
كَأَنَّهَا الكَوْكَبُ الدُرِيُّ فِي الأُفُقِ
فَقُلْتُ نَوَّرْتِنِي يَا خَيْرَ زَائِرَةٍ
أَمَا خَشِيتِ مِنَ الحُرَّاسِ فِي الطُّرُقِ
فَجَاوَبَتْنِي وَدَمْعُ العَيْنِ يَسْبِقُهَا
مَنْ يَرْكَبِ البَحْرَ لا يَخْشَى مِنَ الغَرَقِ
فَقلتُ هذي أحاديثٌ ملفّقةٌ
موضوعةٌ قدْ أتتْ منْ قولِ مُختَلِقِ
فقالتْ وحقِّ عيوني عزَّ منْ قَسَمٍ
وما على جَبْهَتِي منْ لُؤلؤ الرَّمَقِ
إنّي أحِبُّكَ حباً لا نفادَ لهُ
ما دامَ في مُهجتي شيءٌ منَ الرَّمَقِ

فقمتُ ولْهانَ منْ وجدي أقبّلُها

زِحْتُ اللثامَ رأيتُ البدرَ مُعْتَنَقِ

قبّلْتُها قبّلتني وهي قائلةٌ

قبلتَ فايَ فلا تبخلْ على عُنقي

قلتُ العناقُ حَرامٌ في شريعَتِنا

قالتْ أيا سيّدي واجعَلْهُ في عُنقي

***

وتواصلتِ السّهرة إلى أن دنت من نهايتها.

وقتذاك انبرى سِيدْ العَابْدْ، بلسان أثقله السُّكر، إلى الغناء، يضع لمسة الختام، وقد تفتّقت أحزانه الأندلسية:

يا أسفي على ما مضى

آه، وعلى الزّمن، زمن انقضى

آه يا مولاي

أيّام الزّهو والرّضى

عدّينا عشيّة

آه، يا فرقة ديار الأندلس

ما هانوا عليّ

آه عدّينا ليال

ليال ملاح

في غرناطة، بلد الانشراح

آه، يا مولاي

ثمّة لاقيت الملاح

وتاهوا عليّ

يا فرقة ديار الأندلس

ما هانوا عليّ

يا ربّي بفضلك نريد

زيارة المقام السّعيد

اجمعني مع من نريد

في ساعة هنيّة

يا فرقة ديّار الأندلس

ما هانوا عليّ

١٠

سار سِيدْ العَبْدْ يمتطي بغلته، وسار من خلفه مبيريك يقبض ذيلها، حتّى إذا اقتربا من باب عجيسة، صاح الأوّل بالثّاني قائلاً:

- كم جُمُعَة رافقتني فيها يا مبيريك؟

- إنّ العدد أكبر من أن يحصي يا سيّدي!

- وإلى أين نحن ذاهبون الآن بعد أن فرغنا من الصّلاة؟

- إنّك سائر إلى زيارة القبور الثّلاثة، وإنّني في إثرك يا سيّد ي .

- وكيف لم تَسْعَ يوماً إلى معرفة أصحابهم؟

- يكفي أنّك تعلم من يرقد تحت ترابهم يا سيّدي، ويكفي أنّك تُبجّلهم لأفعل.

- ونِعم العبد أنت يا مبيريك!

- ونِعم السّيد أنت يا مولاي.

وإذ تجاوزا الباب ببضع خطوات، أوقف مبيريك البغلة، وراح يساعد سيّده على النّزول من أعلى ظهرها.

أخذ سِيدْ العَابْدْ يتفرّس معالم الباب، وقد ارتسمت على ملامحه معالم ابتسامة باهتة، وقال:

- آه عليك يا عجيسة!

ثمّ مشى بخطى متثاقلة ناحية قبر يوجد على يمينها. وما وقف أمامه حتى بسط أكفّه وراح يهمس مرتّلاً وداعياً لصاحبه بالرّحمة، فمنشداً بلوعة وصوت مسموع:

زرْ غَريباً بمغربٍ

نازحاً مالَه وليْ

تركوهُ موسّداً

بينَ تُربٍ وجَنْدلِ

ولتقلْ عندَ قبره

بلسانِ التذلُلِ

رحِم اللّهُ عَبده

مالكَ بنَ المرحلِ

ولمّا انتهى من ذلك، عاد فركب بغلته، وتوجّها ناحية القبر الثّاني، حتّى إذا وصلا إليه بعد نصف ساعة من المسير تقريباً، تكرّر الأمر عينه، تلاوةٌ ودعاءٌ لصاحبه، ثمّ إنشاد:

بَعُدْنا وإنْ جاوَرَتْنا البُيوتْ

وجِئْنا بوَعْظٍ ونَحْنُ صُموتْ

وأنْفاسُنا سَكَتَتْ دَفْعَةً

كَجَهْرِ الصّلاةِ تَلاهُ القُنوتْ

وكُنّا عِظاماً فصِرْنا عِظاماً

وكُنّا نَقوتُ فَها نحْنُ قوتْ

وكنا شموس سماء العُلا

غربن فناحت عليها البيوت

فكَمْ جَدّلَتْ ذا الحُسامِ الظُّبى

وذا البَخْتِ كم خَذلَتْهُ البُخوتْ

وكَمْ سِيقَ للقَبْرِ في خِرْقَةٍ
فَتىً مُلِئَتْ منْ كُساهُ التّخوتْ
فقُلْ للعِدا ذَهَبَ ابْنُ الخَطيبِ
وفاتَ ومَنْ ذا الذي لا يَفوتْ
فَمَنْ كانَ يَفرَحُ منْكُمْ لهُ
فقُلْ يَفْرَحُ اليومَ منْ لا يَموتْ

كفكف سِيدْ العَابْدْ دمع عينيه، فهتف بمبيريك قائلاً:

- إلى القبر الأخير!

وبعد ساعة من الزّمن صاروا عنده.

ابتعد مبيريك قليلاً، ودنا سِيدْ العَابْدْ من القبر، حتّى إذا وقف عند ناصيته أنشأ يقول بحرقة:

- أمّا أنت يا آخر الملوك، هل كنتَ خائناً كما يقولون؟ أم كنتَ غير محظوظ كما أقول؟

وإلى أن أحسم موقفي من هذا الرّأي أو ذاك، فإنّني باقٍ على العهد، ولا سلطان لأحد عليّ سواك.

١١

إثر دخول سِيدْ العَابْدْ إلى الدار، وما كاد مبيريك ينزع عنه برنسه، حتى داهمته دادا مسيعيدة وقد توارت بشاشة وجهها المعهودة عند استقبالها له، واختفت نبرتها الدّافئة:

- سيدي!

حدجها سِيدْ العَابْدْ وقد تقلّصت عضلات وجهه، ثمّ قال:

- دادا! ماذا خلف هذه النظرات التي لا تبشّر بالخير!

فردّت دادا مسيعيدة بأنفاس متقطّعة كمن توقّف تواً عن الهَرْوَلَة:

- ومن أين يأتي الخير يا سيدي وبيننا تعيش حيّة مرقّطة!

وبنبرة حازمة صاح بها سِيدْ العَابْدْ:

- ماذا هناك؟

تسمّرت دادا مسيعيدة في مكانها، وقد فقدت فجأة قدرتها على الكلام، فعاد سِيدْ العَابْدْ يسائلها:

- قلتُ لكِ ماذا هناك؟

فقالت دادا مسيعيدة بصوت بالكاد وصل إليهِ:

- ضبطنا دمّاحة يا سيدي وهي تحاول الإيقاع بمولاي إدريس؟

عكست ملامح وجه سِيدْ العَابْدْ وقع ما بلغ إلى سمعه، فقال وهو يرمُقُ دادا مسيعيدة بنظرات استغراب:

- ماذا تقولين!

أحنت دادا مسيعيدة رأسها وأذعنت للصّمت. أمّا سِيدْ العَابْدْ فهتف بلالّة كنزة الواقفة في فناء الدار ينتظر منها تفنيد ما نطق به لسانها:

- هل صحيح ما تقوله دادا؟

هزّت لالّة كنزة رأسها بالإيجاب دون أن تنبس، فعاد سِيدْ العَابْدْ يوجّه خطابه لداد مسيعيدة مستاءً:

- منذ متى؟

فردّت دادا مسيعيدة، وبصرها في الأرض:

- من المرّة الأولى رصدتُها سيدي.

مهتاجا دلف سِيدْ العَابْدْ إلى جناحه، وهو يدمدم:

- العتبُ عليّ أن منحتها الوقت لتلعب بذيلها معي.

استغلّت دادا مسيعيدة غياب سِيدْ العَابْدْ المؤقّت، فسارت خبباً ناحية مبيريك حتّى إذا دنت منه همست في أذنه تضغط على الحروف:

- وأنت يا مبيريك حسابك عندي.

وأحسّ مبيريك بالأرض تميد به، حين بلغ إلى سمعه قولها، فغمغم يعاتب نفسه:

- أيّ ساذج أنا! وأيّ خطأ اقترفت! وأيّ جرم ارتكبته في حقّ المسكينة دمّاحة!

ثمّ رفع بصره لوهلة يرمق لالّة كنزة بطرف عين، فوجدها تحيطه بنظرات حادّة تنطق بالوعيد، ولا شيء سواه.

التزم الجميع الصّمت، وساد الهدوء الذي يسبق عاصفة سِيدْ العَابْدْ الهوجاء.

في إحدى غرف الطّابق العلوي التصَقَتْ بناتُهُ ببعضهنّ، وأرهفن السّمع بقلوب مضطربة مرتاعة. وغير بعيد عنهم كان مولاي إدريس في غرفته يرتجف ويبكي. وفي المطبخ كانت الفتيات البئيسات متكدّسات يبلعن ريقهنّ، ويتضرّعن إلى الله. وفي غرفة الخدم تلفّعت دمّاحة بالألم وتدثّرت بالنّشيج، فغدت وحيدة شاردة والغصّات الحارقة ظلّها. أمّا مبيريك فظلّ منتصباً في مكانه مبهوت السّحنة، يشرئبّ بعنقه من شرفات الكدر يرمق الهاوية، وعويلها برزخ تموء فيه العذابات.

- أين هي؟

صرخ سِيدْ العَابْدْ، وقد عاد متخفّفاً من ثيابه، إلاّ من سروال عريض أسود اللّون، وقميص أبيض قصير الأكمام.

- إنّها مقيّدة في غرفة الخدم.

أجابت دادا مسيعيدة، وهي تشير إلى مكانها بسبّابتها المرتعشة.

فقال سِيدْ العَابْدْ في عبوس قاتم:

- مبيريك أحضر السّوط!

- أمرك سيدي!

تمتم مبيريك بهلع، فاستدار على عقبيه، وركض صوب غرفته يحضر السّوط.

والتفت سِيدْ العَابْدْ التفاتة حادّة صوب دادا مسيعيدة، وقال:

- أين الخدم؟

- في المطبخ؟

ردّت دادا مسيعيدة بصوت ضعيف، وهي تغضّ طرفها.

- فليحضرن حالا!

فأجابت دادا مسيعيدة بارتعاد:

- أمرك سيدي!

وانفتلت ناحية المطبخ تتعثّر في خطاها، وما أن دلفت إليه حتّى صاحت بالفتيات قائلة:

- هيّا تحرّكن خلفي!

وما نطقت بذلك حتّى بالت شمس الضحى في سروالها!

- هذا ما كان ينقصنا!

همست دادا مسيعيدة بصوت كالحفيف، وهي تقرص شمس

الضحى من ذراعها.

وبينما كتمت شمس الضحى صرختها من شدّة الألم، زادت دادا مسيعيدة تقول:

- ابقي هنا، واطلبي ربّكِ ألاّ ينتبه لغيابكِ.

ثمّ ندهت الفتيات الأخريات مرّة ثانية:

- هيّا تحرّكن خلفي!

فسارت أوّلاً، وسِرْنَ خلفها بأنفاس متقطّعة، إلى أن أومأت لهنّ بالتوقّف، ففعلن مستقلّاتٍ جندول الصّمت الجنائزي.

إذ ذاك أنشأ سِيدْ العَابْدْ يجول ببصره، يتفقّد لوحة لطالما أبدع في خلق تفاصيلها، وعلى طريقته الخاصّة.

على يمينه مبيريك الجلاّد يحمل السّوط، وعلى يساره لالّة كنزة، ودادا مسيعيدة والفتيات، ولم يبقَ سوى أن تمثل دمّاحة أمامه ويكتمل المشهد.

- أحضريها!

صاح بوجه مكفهر، فوثبت دادا مسيعيدة من مكانها صوب غرفة الخدم، حتّى إذا دخلت إليها بصقت في وجه دمّاحة دون

أن تكلّمها، ثمّ أحكمت قبضتها على ضفيرتها وراحت تجرّها بكامل قوّتها، وبدون اكتراث لأنينها المخنوق.

أخذ سِيدْ العَبْدْ يرمق دمّاحة الجاثية عند أطراف قدميه بنظرة سوداء سمجة، ثم قال بلهجة متعالية خشنة:

- كيف سوّلت لكِ نفسكِ الاقتراب من ابني؟

فصدرت عن دمّاحة تأوّهات متلاحقة، دون أن تتمكّن من الرّد، بسبب قطعة القماش التي كانت تغطي فمها بإحكام.

قال مبيريك يحدّث نفسه:

- لقد تسبّبتُ في هلاك هذه البنت المسكينة. ما أحقر ما اقترفتُ في حقّها!

واستأنف سِيدْ العَبْدْ كلامه مقطّباً حاجبيه، دون أن يجهد نفسه عناء الإنصات إليها.

- مبيريك! اجلد هذه اللّقيطة بلا رأفة!

بعيون ذابلة، وفؤاد يتمزّق ألماً، ولسان متلجلج لا يقوى على الكلام، طاف مبيريك بعينيه يستعرض شكل دمّاحة التي صارت تحت مرمى سوطه، وهو يهمس في دواخله بلوعة:

- لم تكن هذه بغيّتي.. لم تكن هذه بغيّتي...

- اجلدها!

صرخ سِيدْ العَابْدْ وقد اشتعلت عيناه غضباً.

ولمّا أدرك مبيريك أنّه التحذير الأخير له، عضّ على شفته السّفلى، وهوى بكامل قوّته على ظهر دمّاحة.

يضرب مبيريك، سوط يتلو سوط، وعناكب الظّلام ما تنفكّ تنسج خيوطها حوله، فيهمس في سرّه بنبرة لوم:

- سحقاً للنّفس التي سوّلت لي أن أطلعك على الحقيقة!

- توقّف!

- أمرك سيدي.

- انزعوا ثيابها!

صاح سِيدْ العَابْدْ بالفتيات الجامدات بقرب دادا مسيعيدة، رافعاً يده اليسرى إلى ما فوق رأسه، فتراكضن من فورهن ينزعن لباسها، قبل أن يضيف قائلاً بهدوء تامّ:

- كلّ ثيابها!

وفي غضون لحظات صارت دمّاحة عارية كما خرجت للوجود أوّل وهلة!

تقهقرت الفتيات للخلف، وتقدّم مبيريك لاستئناف ما طُلِبَ منه تنفيذه، منتظراً إشارة جديدة من سيّده.

لم تتأخّر الأوامر إلاّ لحظة جلس فيها سِيدْ العَابْدْ على طرف النّافورة التي تتوسّط فناء الدار. ومن مكانه ذاك راح يتأمّل المشهد الذي بدا له أنّ شيئاً ما ينقصه، ثمّ قال بحدّة:

- دادا أحضري العود!

فذُهلت دادا مسيعيدة من طلب سِيدْ العَابْدْ، دون أن تندّ عنها حركة تدلّ على ذلك، ثمّ نطّت من مكانها برشاقة عزّ الشّباب المأسوف عليه. وفي لحظات معدودات عادت، وبين أحضانها آلة العود، وما أن منحتها لسِيدْ العَابْدْ حتّى عادت لمكانها في الصّف.

ومع تعالي الأصوات المكتومة الخارجة من جوف دمّاحة الرّازحة تحت نير السّوط، أنشأ سِيدْ العَابْدْ يضحك بشكل هيستيري أدخل الرّعب في نفوس من حوله بدون استثناء، ثم قال مشيراً نحو مبيريك بقبضة يده اليمنى، وقد انتبه إليه يُسيل دموعاً عصته، فنزلت قسر إرادته تُترجم وجعه:

- كلّكم كلاب لا يلائمكم إلاّ السّوط، بل الكلاب أكثر نبلاً منكم ووفاءً لسيّدها.

اجلدها! اجلدها بعنف أكبر! بعنف أكبر وإلاّ سلختُ جلدك أنت الآخر!

وراح يعزف مغمض العينين، متلذّذاً بأنين دمّاحة الممزوج بنغم العود، وخرير مياه النّافورة، وصوت السّوط!

١٢

- كفى!

صاح سِيدْ العَابْدْ بمبيريك، وقد توقّف عن العزف، ثمّ أشار إليه أن خُذْ عنّي آلة العود.

وعاد الصّمت ليبسط جناحه من جديد، فطافت فوق الرؤوس الأسئلة والفرضيات:

والآن ما الخطوة التّالية بعد أن فقدت دمّاحة وعيها بشكل كاملٍ؟

هل يكتفي سِيدْ العَابْدْ بهذا؟ أم سيعمد إلى أن تستعيد وعيها ويأمر بجلدها كرّة أخرى؟

ومن حيث لم يتوقّع أحد جاء ردّ سِيدْ العَابْدْ ليغرق الجميع في مزيد من الذّهول!

- أدخلوها إلى غرفتي!

وما نطق بذلك حتّى توضّح في الأذهان ما ينوي القيام به.

إنّه عازم على اغتصابها!

ولا أحد بمقدوره أن يخلّصها منه.

لا أحد.

- لم تكن هذه بغيّي!

غمغم مبيريك في دواخله كأنّه يتجرّع السّم، وهو يشيّع دمّاحة المحمولة على أكتاف بقيّة الفتيات، وقطرات الدّم تنزف منها بلا انقطاع.

- سامحيني يا دمّاحة فأنا من ألقيتُ بكِ في هذا الجحيم!

استتلى، وقد خانته ركبتاه، فلم تعودا قادرتان على حمله.

لم يعره سِيدْ العَابْدْ أي اهتمام، فاكتفى برمقه شزراً، وراح ينتظر عودة الخدم حتّى إذا اصطففن أمامه بعيون تبحلق في الفراغ، صاح بهنّ، وبلالة كنزة، ودادا مسيعيدة قائلاً:

- والآن زغردن! ولا تتوقّفن عن ذلك حتّى أخرج!

فانطلقت الزغاريد تلعلع في الهواء كأنّها طلقات بارود!

ولم نتوقّف حتّى خرج سِيدْ العَابْدْ، وأمر بذلك، فسار يتبختر في مشيته كأنّه طاووس باتجاه الحمّام. وقبل أن يدلف إليه، وقف على عتبته، وقال بصوت هادئ:

- نظفوا الغرفة!

- ودمّاحة! ماذا نفعل بها يا سيدي؟

سألته دادا مسيعيدة.

- سأنظر في أمرها لاحقاً.

- أمرك سيدي.

وفي تلك اللّحظة صرخت إحدى الفتيات بصوت كالدويّ:

- مبيريك! ماذا تفعل!

وكان مبيريك يبقر بطنه بخنجره!

طعنة أولى..

فثانية..

فثالثة..

فرابعة.

ثمّ سقط غارقاً في دمائه!

سارعت دادا مسيعيدة والفتيات الخطى نحوه، فحاولن تخليصه من خنجره، لكنّ ذلك لم يتأت لهنّ إلاّ بعد فوات الأوان.

لقد كتم مبيريك صرخته، وقتل نفسه بنفسه طمعاً في الخلاص من نفسه!

وفي جوّ من النّحيب المرّ ارتمين في أحضانه، غير مكترات بالدّماء التي لطخّت ثيابهنّ.

ولم تجد لالّة كنزة بُدّاً من البكاء عليه مثلهنّ، فاكتفت بالصّمت، وظلّت في مكانها بلا حراك. أمّا بالنّسبة لسِيدْ العَابْدْ فلم يعد مبيريك إلاّ عبئاً وجب التّخلّص منه، دون لفت الانتباه.

انتظر نصف ساعة تقريباً، وهو جامد في مكانه يفكّر ويفكّر، حتّى امتصّت دادا مسيعيدة، وبقيّة الفتيات الصّدمة قليلاً، ثمّ قال:

- راح مبيريك والكلّ راحل، ولا يبقى إلاّ وجه الله تعالى. وكما ترون فموته كان طبيعياً، وتصريفاً لحكم الله الذي لا يعرف التّأخير إذا جاء.

وطفقت الأعين تحلق تارة في جثّة مبيريك السّابحة في دمائها، وتارة أخرى في سِيدْ العَابْدْ الذي واصل يقول:

- أدخلوا المرحوم إلى غرفته، وأشعلوا شمعتين عند رأسه، وانتظروا حلول الصّباح. سأذيع خبر وفاته بين النّاس في المسجد عند صلاة الفجر، وسأقوم أنا بتغسيل الجثّة وتكفينها، ولن يطّلع على سرّها أحد غيري.

حدج سِيدْ العَابْدْ الجميع بنظرات قاسية، وأضاف:

- إنّ ما حدث هنا يجب أن يبقى هنا، ولا يخرج عن أسوار الدار أبداً.

- طبعاً سيبقى هنا!

صاحت لالّة كنزة وهي تحدج دادا مسيعيدة والفتيات. قبل أن تضيف قائلة:

- لا أريد أن أرى قطرة دم هنا!

- أمرك لالّة!

تمتمت دادا مسيعيدة، وهي تمسح دموعها بكمّ قميصها.

فصرخت لالّة كنزة:

- هيا انهضن، يكفي هذا! نظّفن المكان، وبعدها إلى الحمّام مباشرة!

- أمرك لالّة! وسبب المصيبة؟ ماذا نفعل بها؟

- انقلوها إلى فندق اللّيمون حالما يرتدي اللّيل كسوته، وتبيّنوا جيّداً من وثاقها.

- أمرك سيدي!

ودبّت بعد ذلك حركة صامتة في أرجاء الدار...

الفصل الرّابع:

١

(قبل وفاة مبيريك بأسبوع)

- جئت لأعرف منك معنى رجل معطّل الرّجولة، وأتمنّى ألاّ تداهمنا دادا مسيعيدة هذه المرّة أيضاً.

قالت دمّاحة باهتمام وصوت منخفض، فردّ عليها مبيريك بفتور:

- أظنّ أنّ هذا لن ينفعكِ في شيء.

- وما الذي بمقدوره أن ينفعني؟

صمت مبيريك للحظات، ثمّ قال:

- الحقيقة إذا استُعمِلت في سياقها، وبشكل سليم.

قطّبت دمّاحة حاجبيها، وسألته بنفاذ صبر:

- وما الحقيقة إذن؟ وما هو السّياق الأنسب لها؟

- الأولى سأمدّكِ بها، أمّا الثّاني فأجهل السّبيل إليه.

- وأنا أرجوك أن تخبرني بالحقيقة، وأعدك أن أحسن الانتفاع بها.

- اقتربي إذن!

التفتت دمّاحة خلفها، فدنت من مبيريك، وأرهفت السّمع إليه يقول:

- لا أحد يخرج من هنا. لا أحد إطلاقاً.

- بمعنى؟

- إنّ ما قيل لك كذب وبهتان.

- بشأن ماذا؟

- أقصد مسألة تكوين الخدم، وإعادة بيعهن، وما إلى ذلك...

وبينما تسمّرت دمّاحة في مكانها، استتلى مبيريك يقول:

- يشتري سيد العابد الجواري والخدم لنفسه، وليس لإعادة

بيعهن والمتاجرة فيهن.

ابتسمت دمّاحة ابتسامة جوفاء، وقالت في سريرتها:

- سيّان عندي التواجد هنا، تحت إمرة سيد العابد، أو في مكان آخر تحت إمرة أسياد آخرين، وغايتي تتجاوز كلا الوضعين.

- أصغي إليّ جيّداً يا ابنتي دمّاحة سأمنحك تذكرة خروجك من هذا السّجن. ينبغي فقط أن تهتدي إلى كيفية توظّفيها بشكل جيّد كما أسلفتُ لكِ.

- اعتقدت أنّك قلتَ كل ما لديك، وأنّ هذه هي الحقيقة التي كنتَ تنوي تقاسمها معي؟

وبنبرة شبه آلية قال مبيريك:

- دادا مسيعيدة هي أمّ مولاي إدريس الحقيقية وليست لالة كنزة.

في دهش تطلّعت دمّاحة إلى مبيريك وهتفت:

- ماذا تقول؟

- لا ترفعي صوتك!

وبصوت خافت، كرّرت دمّاحة سؤالها:

- ماذا تقول؟

- ما سمعته أذناك، دادا مسيعيدة هي أمّ مولاي إدريس الحقيقية وليست لالّة كنزة.

- غير معقول! غمغمت دمّاحة بصوت ملعثم.

- انظري إلى وجه الشّبه بينهما فقط.

- لا أصدّق ذلك!

- انظري إلى لون بشرته الذي يخلط بين لون بشرة أبيه، ولون بشرة دادا مسيعيدة السّمراء. أين لالّة كنزة بلون بشرتها النّاصحة البياض من كلّ هذا؟

- وكيف حدث ذلك؟

فقال مبيريك بصوت المتألّم:

- كما من المحتمل أن يحدث في كل ليلة.

- لم أفهم قصدك؟

- أين تنامين لحدود اللّحظة؟

- بجوار دادا مسيعيدة في غرفتها الخاصّة؟

- وبقيّة الفتيات؟

- لوحدهنّ في غرفة الخدم.

- ولِمَ في نظرك؟

- ولِمَ؟

- حتى يتسنّى لِسيدْ العَابْدْ، أن يختار منهنّ من يشاء، والعدد الذي يشاء أيضاً.

- ولِمَ يتمّ عزلي بهذا الشّكل، والتعتيم على ما يجري؟

- لأنّك في مرحلة التدجين، ولأنّ ودورك لم يحن بعد في تقدير سيد العابد.

شعَرَتْ دمّاحة بجفاف في الحلق، فشدّت على أعصابها تكتم رغبة في البكاء، ودمدمت بصوت مخنوق:

- غير معقول!

فتمتم مبيريك في غمّ:

- إنّ سِيدْ العَابْدْ غير مهتمّ بتجارة الرّقيق، وإعداد الإماء، وغير

ذلك ممّا قيل لكِ إلى حدود اللّحظة. بل إنّ ما يسعى إليه هو أن يعيش كما كان أسلافه يعيشون.

إنّه، ومنذ عهدي به، وهو متفرّغ لمتعة الصّلاة، والغناء، والخمر، والنّساء، والحلم بالعودة إلى الأندلس.

وباستثناء يوم الجمعة، الذي يحرص فيه على تأدية الصّلاة بجامع الأندلس، وزيارة ثلاثة قبور، فإنّ سائر أيامه تسير كما يلي:

يستيقظ في الصّباح، وبعد تناول فطوره، يخرج لتقصّي آخر الأخبار وتجادب أطراف الحديث مع أصدقائه، أو لتحصيل واجب الكراء من فنادقه عندما يكون وقت ذلك.

وما أن يحين وقت صلاة الظّهر حتّى يلج إلى القرويين، وهناك يبقى إلى أن يفرغ من صلاته، ثم يعود أدراجه إلى المنزل. وإذ ينتهي من طعامه، يدخل إلى غرفته لأخذ قيلولة.

بعد آذان العصر يذهب إلى القرويين، ثم يعود ليداعب أوتار العود وينشد أغانيه المحبّبة.

يُرفَعُ آذان صلاة المغرب، فيتوجّه مرّة أخرى إلى القرويين، ولمّا يفرغ من الصّلاة يعود إلى الدار، ينادي على مصحفه، فينهمك في التّرتيل حتى آذان صلاة العشاء...

تطلّعت دمّاحة إلى مبيريك، ولم تكن تسمعه بغير أذن شاردة، فقاطعته قائلة:

- ومن يدري بحقيقة مولاي إدريس؟

- دادا مسيعيدة، ولالّة كنزة، وسِيدْ العَابْدْ.

- وهل يعلمون بأنّك تعرف سرّهم؟

- بالطّبع يجهلون أنّني أعلم، وإلاّ كانوا...

فعادت لتقاطعه دمّاحة مرّة أخرى بنفاذ صبر:

- وكيف وصلتَ إلى ذلك؟

- سمعتهم صدفة يتهامسان، أعني دادا مسيعيدة، ولالّة كنزة.

أحنت دمّاحة رأسها، وقالت:

- ولماذا تطلعني بهذا؟

تنهّد مبيريك وقال، وهو يربت على كتفها:

- أعلم يا صغيرتي أنّك تبحثين عن طريقة للهروب من هنا.

- ومتى عرفت بذلك؟

حدج مبيريك دمّاحة بنظرة كئيبة وقال:

- يوم سألتِ عن الطريقة التي هرب بها زوج مسيعيدة المزعوم.

- هذا يجبرني أن أسألك، مرّة أخرى، عن معنى رجل معطّل الرّجولة؟

طرد مبيريك من صدره زفرة حارقة حمّلها جماع عذابه، وقال:

- أنا رجل مخصيّ.

ثُمّ غضّ بصره، وأضاف كسير الفؤاد:

- تَمّ ذلك تحت إشراف السيّد الأوّل الذي اشتراني. وعلى هذا الأساس جلبني والد سِيدْ العَابْدْ معه من

مكّة يوم زارها لأداء فريضة الحجّ- وهو المكان الذي تزدهر فيه تجارة هذا الصّنف من العبيد المخصيين- وسمح لي بالاختلاط مع حريمه بكل اطمئنان.

وكما قلتُ لكِ، لم ولن يسمح سِيدْ العَابْدْ بالتواجد الدّائم لرجل وسط حريمه.

- يا إلهي!

فحص مبيريك دمّاحة بنظرة ودودة، وقال برقّة:

- إنّني يا ابنتي أعتبر مساعدتَكِ في الخروج من هنا شرفاً عظيماً أُسدل به السّتار على حياة لم تشبهني في يوم من الأيام.

- أمّا غايتُكَ هذه، فليس ما يبرّرها إلاّ صفاء قلبكَ، ونقاء نفسكَ .

فاستتلى مبيريك يقول بحسرة، وكأنّه لم يسمع شيئاً ممّا نطق به لسان دمّاحة:

- حياة قتلني الاعتياد عليها، فاستسلمت أتفرّج على انفراط حبات عقدها من بين يديّ!

حياة لفحتني بلهيبها ولفّتني بضبابها، فكتمَتْ أنفاسي وأورثَتْ في روحي المهانة!

حياة آنستُ إليها وتدثّرتُ بحجاب قهرها، فسلختُ كلّ أيّامها في اللاّمعنى واللاّ جدوى!

لا أب، ولا أمّ!

لا إخوة، ولا أخوات!

لا ولد، ولا تلد!

لا أوّل، ولا آخر!

يا لها من مأساة!

وبصوت مجروح استتلى مبيريك يقول، في لحظة تفجّرت فيها ينابيع الأسى في قلبه:

- آه كم هو قاسٍ أن تستيقظ فجأة على فجيعتك، فتدرك أنّ كلّ ما تملكه هو ترديد كلمتين لا ثالث لهما: أمرك سيدي!

وبين الأولى والثّانية، جبال من الغمّ.

لم أعش إلاّ تحت ظلّ أسيادي، ولم آكل إلاّ فتاتهم، ولم أفرح إلاّ من أجلهم، ولم أحزن إلاّ عليهم!

العتب على من يا ابنتي؟

العتب على من؟

- عليهم طبعاً...

وهمّت دمّاحة أن تقول: «وعليكَ أيضاً»، فرقّ قلبها له، وارتمت في حضنه تنشج بدموعها أكثر منه.

٢

(بعد وفاة مبيريك بشهرين)

- الآن بمقدورنا أن نتحدّث بهدوء.

صاح سِيدْ العَابْدْ بدمّاحة القابعة في عمق الغرفة المتواجدة بالفندق الذي كان يعرف عمليات الإصلاح، والتي توقّفت منذ احتجازها فيه.

- الآن! لا أعتقد أنّ هذا عنده قيمة عندي.

ردّت عليه ببرود، وهي تضع يديها على وجهها، محاولة درء نور الشّمس الذي غشي المكان دفعة واحدة.

فقال سِيدْ العَابْدْ، بعد أن جلس قبالتها على كرسيّ جلبه معه:

- لكنّه يملكها في تقديري.

- ما أحقر تقديرك!

دمدمت دمّاحة بنبرة استخفاف.

- هذه المرّة سأسامحك على قولك هذا، لكنّني لا أضمن لك ذلك في المرّة القادمة.

- ...

حملق سِيدْ العَابْدْ صوب دمّاحة وقال:

- ما الذي حدث بالضّبط بينك وبين مولاي إدريس في ذلك اليوم؟

- كان من الأجدر أن تطرح هذا السؤال من قبل.

- أنا من يقرّر متى من الأجدر طرحه ومتى لا.

- تريد أن تعرف إذن ما الذي حصل بيننا؟

- أجل.

- ما حصل هو أنّني علمت بأنّ مولاي إدريس ابن دادا مسيعيدة، فقمتُ بمواجهة لالّة كنزة بالأمر، والبقيّة تعلمها.

- غير صحيح ما تقولينه.

- وما هو الجزء الغير الصّحيح فيه؟ حقيقة أن مولاي إدريس ابنك من دادا مسيعيدة، أم أنّني أغويته كما أخبرتك لالّة كنزة ودادا مسيعيدة؟

وأمام ارتباك سِيدْ العَابْدْ استتلت دمّاحة تقول:

- لم أقترب من مولاي إدريس قط، ولم يحدث أن صدر من الشّاب الطّيب أي سلوك سيّء. ولو أنّك نزعتَ قطعة القماش من فمي في ذلك اليوم، أو على الأقل سألتَه، لكُنتَ عرفت الحقيقة.

لكنّك أصغيتَ فقط لما افتريته عليّ لالّة كنزة ودادا مسيعيدة، وقد كانتا تعلمان مسبقاً بأنّك ستكتفي بذلك، وتطبّق حكمك كما تشاء، وإرادتهما كما رسمتا وخطّطتا لذلك.

أطرق سِيدْ العَابْدْ ولزم الصّمت، على حين واصلت دمّاحة تقول:

- إنّك شخص مأسوف على حاله، تعترف بابنك وفي نفس الوقت تنكر أمّه الحقيقية. اعترفتَ به مؤقّتاً حتّى تنجب من لالّة كنزة ذكراً غيره، ثم تنكره من بعد ذلك، لكن الأقدار كان لها رأي آخر.

ثمّ مستدركة أضافتْ:

- تتمزّق ألماً لأنّك حتّى لو أنجبت غيره الآن فليس بمقدورك إنكاره.

تزحزح سِيدْ العَابْدْ في مجلسه كأنّه ينوي الوقوف، دون أن يفعل ذلك، وقال بصوت مشرّب بالانفعال:

- من أنتِ؟ ومن تكونين؟

رفعت دمّاحة رأسها قليلاً، وقد سطعت من شفتيها ابتسامة رقيقة، ثم قالت:

- أنا؟

معروف من أنا!

أنا دمّاحة الحرّة بنت الحرّ، بنت الرّحابة التي لا حدود لها، وبنت الواحة والخطّارة والنّخلة الكريمة المعطاء. أنتَ من يلزمه أن يُعرّف بنفسه من يكون؟

وهمّ سِيدْ العَابْدْ أن يتكلّم فبادرته دمّاحة قائلة:

- لماذا أبقيت على دادا مسيعيدة كلّ هذه المدّة؟

فدمدم سِيدْ العَابْدْ متنهّداً:

- ولماذا في نظرك أبقيتُ عليها؟

- لا أعتقد أنّك تحبّها، فأنت لا تحبّ إلاّ نفسك وغرورك وجنّتك المفقودة.

- وماذا ترين إذن؟

- أظنّ أنّك اقتنعت باستحالة إبعاد أمّ عن ابنها مهما فعلت.

ولا أشكّ في أنّك فكّرت في الإجابة الوحيدة التي يفرضها مثل هذا الوضع، أقصد القتل، غير أنّك لم تقوَ على ذلك، بالرّغم من كلّ دماء العنف التي تسري في عروقك.

فقال سِيدْ العَابْدْ بصوت فيه نبرة استسلام:

- لماذا واجهتِ لالّة كنزة بأمر مولاي إدريس؟

- انظر لنفسك إنّك تعترف ضمنياً بالحقيقة. ولماذا في نظرك فعلتُ ذلك؟

- لا أعلم!

- بل يجب عليك أن تعلم بأنّ الإنسان الحرّ سيسعى إلى استرجاع حرّيته بأيّ وسيلة ممكنة.

- ولماذا بقيّة الفتيات لم يسعين خلف ذلك؟

- هناك نوعان من النّاس، من يجري وراء ما يصبو إليه، بأن يصنع الحافز لنفسه بنفسه. ومن يظلّ يترقّب ظهور المحفّز وعندها يتحرّك من أجل تحقيق مبتغاه.

- وأنتِ من الصّنف الأوّل، وهنّ من الصّنف الثّاني؟

- تماماً.. أنا من الصّنف الأوّل، وهنّ من الصّنف الثّاني. إنهنّ يترصّدن الفرصة السانحة فقط. جرّب أن تمنحهنّ إيّاها وسترى بأمّ عينيك.

فقال سِيدْ العَابْدْ في ضيق:

- وأنا من أيّ صنف؟

- أنتَ!

- أجل أنا؟

- أنتَ خارج التّصنيف. أنتَ لا تنتمي للنّاس ما دمت تسلبهم أسمى ما ميّزهم به الله تعالى.

بامتعاض عاد سِيدْ العَابْدْ لطرح سؤاله السّابق:

- لم تجيبي على سؤالي بعد، لماذا واجهتِ لالّة كنزة بأمر مولاي إدريس؟

- لقد ظننتُ بأنّ ذلك سيمكّنني من عقد صفقة مع لالّة كنزة، حرّيتي مقابل صمتي، أنا سأصمت وهي ستتدبّر لي مخرجاً من سجني.

كنت أنوي ادّعاء أنّني سمعتهما تتهامسان كما حدث مع مبيريك رحمة الله عليه لمّا اكتشف السّر، بيد أنّني أخطأت التّقدير، ودفع المسكين ثمن سوء تقديري.

- وما السّبب في نظرك وراء سوء التّقدير هذا؟

فقالت دمّاحة وهي تتلقّى نظرات متلاحقة من سِيدْ العَابْدْ:

- ربّما لأنّني أقلّ حيلة من لالّة كنزة ودادا مسيعيدة، وهذا منطقي بحكم تواضع تجربتي في الحياة أمامهما. وربّما لأنّني تسرّعت عندما قرّرت التخلّي عن خطّتي التي كنت أنوي تطبيقها، قبل أن أعرف سرّ مولاي إدريس.

لكن ما هو مؤكّد يكمن في أنّني عجزتُ عن السّيطرة على نفسي سيطرة تامّة، بالرّغم من أنّني حاولت ذلك بكلّ ما أوتيت من جهد.

- وما كانت خطّتك الأولى؟

- لن تعرفها. سأحتفظ بها لنفسي.

حدج سِيدْ العَبْدْ دمّاحة بنظرات متلاحقة، ثمّ تمتم بصوت ضعيف :

- إذا كنتِ تنوين الاعتماد عليها مجدّداً فأنتِ لستِ بحاجة إليها، ولا لغيرها.

كفّ ثانية ثم استتلى قائلاً، وقد رفع صوته قليلاً:

- أنتِ حرّة منذ الآن، ويمكنك الذّهاب حيثُ تشائين.

هنا استندت دمّاحة على الجدار تحاول النّهوض من مجلسها، حتى إذا انتصبت واقفة قبالة سِيدْ العَبْدْ، نطقت وهي تمرّر يدها على بطنها بحنو وأسف:

- أعتقد أنّ الأوان قد فات.

الفصل الأوّل:

١

- يبدو أنّك من النّوع الذي لا يفهم من الإشارة الأولى!

همرَت سيّدة غاضبة كانت تجلس بمحاذاة الباب الخلفيّ للحافلة.

استدار الرُّكّاب يرقبون ما يجري!

- حسنا سأريكَ مع من قرّرت أن تعبثَ هذا اليوم.

زادتْ بحدّة وعصبيّة طافحة، قبل أن تتناول بنزق حقيبة يدها، وكانت على قدر وارف من الزّينة بجلباب أخضر يبرز بوضوح تضاريس ردفيها الضخمين، ومنها أخرجت مفكّ براغٍ أسود اللّون!

أحكمتْ قبضتها عليه، وشنّت هجوماً كاسحا على من كان يضايقها، إلاّ أن أحد الرّكاب حال بينها وبين مرادها، فعادت إلى مكانها تلعنُ بأقذع العبارات.

أمّا المعتدي فاكتفى بالصّمت وتغيير مجلسه، فعاد صخب هدير محرّك الحافلة الممزوج بصراخ الأطفال ليطفو على السّطح.

صخبٌ لذيذٌ راقتْ له نفسي، فالتصقتُ بزجاج النّافذة، وبنهمٍ جعلت أشاهد المناظر التي كانت تلوح حيناً وتختفي حيناً آخر.

أشجار الزّيتون على امتداد البصر..

فلاّحون وفلاّحات يداعبون وجه الأرض بهمّة ونشاط..

آلة حصاد ظهرت فجأة، وهي تلتهم ما تبقى من السنابل الواقفات، ثم اختفت..

جرّار يعالج أكوام التّبن على مهل، ويضع اللّمسات الأخيرة على مشهد موسم الحصاد..

- آه.. كم هي رحبة هذه الدّنيا!

غمغمتُ بجذل، بينما كان أنفي يلتقطُ صنوفا شتّى من الرّوائح القويّة، وقد ميّزتُ بعضها (بيض مسلوق، لبن، سردين معلّب، بسكويت)، وعجزت عن معرفة البعض الآخر.

طيلة الطّريق لم تفارقني صورة أمّي، وهي تُلوّح لي بيدٍ مرتجفةٍ، وأطرافٍ مرتعشةٍ، وقلبٍ خافقٍ بحبّ لا تمنح مثله إلاّ الأمّهات،

ولا تنساه أفئدة الأبناء مهما طال الزّمن، وتقدّم بهم العمر.

لم يسبق لي أن تركتُ الدّار، ولا غبتُ عنها، وهذا ما كان يزعج أبي.

- أرجوك دعْهُ يبقى معنا حتّى العام القادم!

- في كلّ مرّة أعقدُ العزم على إرساله تقولين هذا الكلام!

- أرجوك.. لا يزال صغيراً على ذلك.

- لا يزال صغيراً!

اسمعوا ماذا تقول!

لقد بلغ الثالثة عشر من العمر! إنّه رجل، افهمي هذا جيداً! ستفسدينه بدلالكِ المفرط، وعندها ستندمين حيث لا ينفع النّدم.

سَمِعتُ مراراً ما كان يدور بين والداي من حديثٍ بشأني، فكنتُ أشفِقُ على أمّي، لأنّني في الحقيقة لم أمتلك يوماً القوّة لكسر خاطرها، وهي التي ما برحت **توصيني** برفض الذّهاب إلى أيّ مكان، **وتصرّ** عليّ أن أختار البقاء لحفظ القرآن الكريم، وتحثّني على مضاعفة بذل الجهد لتحقيق ذلك.

- إنّه عاكف على حفظ كتاب الله، والفقيه ينوّه بنباهته، ويأملُ فيه الخير الكثير.

- ومع ذلك عليه أن يتعلّم حِرفة، ويتعلّم كيف يكون رجلاً. افهميني يا امرأة ولو لمرّة واحدة في عمري البئيس!

افهميني! افهميني!

كانت أمّي تراني فقيهاً حافظاً وحاملا لكتاب الله، أخلف في ذلك جدّي وخالي، وكان أبي يراني صاحب حِرفة، وابن مدينة، ورجلاً لا يخشى إلاّ الله، ولا ينحني للرياح والعواصف مهما تجبّرت. وعلى هذا الأساس كان يرى بأنّ موعد خروجي من البيت قد طال، وأنّ المسؤولة الوحيدة عن ضياعي وإفسادي هي أمّي.

بين الإرادتين انشطرتُ، وفيهما أيضاً انصهرتْ رغباتي حتّى صرتُ أجهل ما أريده وما تهفو إليه نفسي.

من حيث لم يكن أحد يتوقّع سُمِع أزيز الفرامل، صاحَبَهُ تساقط بعض الأمتعة فوق الرؤوس، قبل أن تتوقّف الحافلة عن الحركة نهائياً!

- لقد انفجر أحد الإطارات.. سنتوقّف قليلاً لاستبداله.. حمداً لله على سلامتنا جميعاً.

صدح مساعد السّائق بصوت سمعه جميع الرّكاب.

شهقت النساء، وصمت الصغار، ومن الخلف ردّد شيخ عليل بلسان متهدّج:

- حمداً لله على سلامتنا.. حمداً لله...

لفظت الحافلة ما كان بداخل أحشائها تحت وقع التّدافع، فانبرى قسم من الرّكّاب إلى معاينة الضّرر الذي طال إطارها، ولسانهم يلهج بالحمد والشكر، وعمد قسم آخر إلى استغلال اللحظة، فتفرّقوا مبتعدين قليلاً لإفراغ مثانتهم.

- لا شكَّ أن المشوار سيطول.

خاطبني أبي وهو يخرج **(الكوزة) الصنوبرية** من جيب سرواله، حيث كان يضع (طابَة) معشوقة قلبه، والتي يتفنّن في حكّها ويخلص لتعاطيها بكل جوارحه.

- أتمنّى أن تطول وقفتنا، ومعها مشوارنا. قلتُ في سريرتي.

لكن سرعان ما تمّت معالجة المشكلة واستأنفت الحافلة المسير، فعادت الرّوائح لتفوح مجدداً، وعاد الصّراخ الممزوج بوعود ووعيد الأمّهات ليملأ الأجواء.

٢

عند نزولنا من الحافلة، داهمتني موجة ضجيج المقتبلين والمودّعين التي كانت تجتاح المحطّة.

- وأخيراً أضع قدماي في مدينة فاس!

همستُ والحبور ينضحُ من ثناياي.

كانت جميع حواسّي متيقّظة ومستعدّة تمام الاستعداد لالتهام كافّة التّفاصيل، ونقشها على جدار ذاكرتي بحبرٍ لا تفنى بصمته، ولا يزول أثره.

«سينما الأندلس»

تراقصت عيناي جذلا، وأنا أطالع العبارة.

وخفق قلبي بلذّة عجيبة، وأنا أعاين صور إعلانات الأفلام عند

مدخل مبنى السينما المتألّف من طابقين، والمطلّ بنوافذه الكبيرة على الواجهتين الشرقيّة والجنوبيّة.

لقد اختلطت مشاعري لحظتها واضطربت، فكدتُ لا أصدّق بأن ما أراه حقيقة وليس وهماً.

وفي كنفِ سينما الأندلس **بباب فتوح، وسينما الهلال بالعشّابين**، وبين العتمة التي كانت تغشى قاعة العرض وتوهّج الصّور على الشّاشة، عِشتُ ومضاتٍ من أحلام وخيال.

محتمياً بغطاء العتمة التي تعزل المشاهدين عن بعضهم، كنتُ أهيمُ على وجهي في عوالم الممثّلين الشّخصية، مستمتعاً بتلصّصي عليهم.

وكم كنتُ أعجب من عدم مبالاة الممثّلين لوجود الجمهور!

ومتلذّذاً بما تعرضه الصّور تباعاً، كنتُ أتماهى مع شخصيّة البطل في حركاته وسكناته، فأحلّق في سماء القدرة على فعل أيّ شيء، وهزم أيّ شخص، وإغواء جميع حسناوات العالم!

تتوقف الصّور عن الظّهور، وتمتلئ شاشة العرض بالكلمات والحروف، فيتجلّى أمامي وكأنّ الثّانية (الكلمات والحروف) تشيّع الأولى (الصّور) وتصحبها إلى مثواها الأخير!

لحظتها أستعيدُ القليل من إدراكي للوجود الفعليّ، فأبدأ تدريجياً بالعودة إلى جحمي السّابق.

وبخروجي من القاعة أفقد جميع قواي الخارقة، دون أن أفقد الرّغبة في العودة مرّة أخرى، وأنهمك في ترقّب يوم الجمعة القادم!

انحدرنا عبر **شارع واندو..**

المتاجر والمستودعات، على امتداد الجهتين اليمنى واليسرى، تعرض صنوفا شتّى من البضائع والسّلع.

وحركة التّجار والزّبائن والحمّالين والدّواب وأصواتهم، تغشى الشّارع المكتظ فيحسب المرء أنها لن تتوقّف أبداً!

انعطفنا يساراً من خلال درب الجامع الجديد. توقفا عند سقايّة محاذية للجامع، فدنا أبي منها وتناول كأساً نحاسياً كان مربوطا بصنبورها.

ثم بسملَ بهدوء..

وملأ الكأس..

فقال بصوت مسموع، قبل أن يشرب:

- **شي لله أ مولاي إدريس.**

(وقد تكرّر الأمر عينه مع سقّاية جامع الأندلس، وسقّاية درب الصفّاح، وسقّاية الحسّونية، وسقّاية الصفّارين)!

أكملنا مسيرنا عبر **درب الحوّاتين، ومنه مباشرة إلى جامع الأندلس، فزنقة الصفاح، ودرب باللمطي، وزنقة سيدي يوسف، وزنقة الحدّادين، وزنقة النخّالين، وزنقة الخراشفيين، ومنها إلى ساحة الصفارين.**

بدهشة بادية على محيّاي وذهول طافح، جعلتُ أستقبل تفاصيل ما أبدعه وما يعرضه الصوّاف، والخيّاط، والدرّاز، والحصّار، والطرابشيّ، واللّباد، والمجادليّ، والشكايري، والبزاطمي، والدبّاغ، والنجّار، والعوّاد، والحدّاد، والمهارزي، والنقايشي، والطناجري، والصوايني، والفخّار، والقصّاب، والروابزي، وغيرهم...

انعطفنا يمينا عبر **زنقة المشّاطين**، فيساراً من **زنقة باب النّقبة**، أبي في الأمام، وأنا ألحق به حاملا محفظة جلديّة صغيرة بها أغراضي، وكيساً به عسل وسمن وزيت وزيتون.

وما بلغنا **زنقة شوّارة الموالّية**، حتى تناهى إلى سمعنا صوت يقول:

- لقد امتلأت الدّنيا بالبدو!

توقّف أبي، فتوقّفتُ أيضاً، واستدرتُ ناحية مصدر الصّوت.

وقع بصري على شخص كان يتكئ على باب أحد الدكاكين المغلقة، ويداعب آلة حادّة بين أصابع يديه، أمّا وجهه فكان يحمل من النّدوب ما لم أكن قد رأيته قط!

- من هبّ ودبّ صار يقصد المدينة في هذه الأيّام!

لحظتها استدار أبي، فخدج صاحب النّدوب بنظرات ترجمت ما اهتاج بدواخله.

- وهل المدينة ملك لأمّك حتى تمتعض من مجيء البدو إليها!

قال أبي، وهو يتقدّم بخطوات ثابتة نحو صاحب النّدوب.

- هل قلتَ أمّي يا ابن البدويّة!

وقبل أن يشتبك الاثنان وثبتُ من مكاني، فهويتُ على رأس صاحب النّدوب بما كنتُ أحمل، قاطعا الطّريق أمامه، ومانعاً إيّاه من لمس أبي.

كانت فجائيّة الضّربة كافية لجعل المعتدي يرتبك، وهو ما منح أبي الفرصة المثاليّة لكي يسدّد له لكمة قويّة سال لها دم أنفه.

- تراجعْ إلى الخلف!

أمرني أبي، وهو يترك مسافة بينه وبين من كان جاثياً على قدميه.

بَقِينا للحظات بدون حراك ننتظرُ ردّة فعل خصمنا.

وما كان من صاحب النّدوب إلاّ أن استجمع بعضاً من قواه، وأطلق ساقيه للريح!

٣

- هذا هو الفندق المنشود.

صاح أبي في ارتياح، وهو يوزّع نظراته على مدخله.

وكان المدخل عبارة عن باب خشبيّ ضخم غامق اللّون، مؤلّف من مصراعين مصفّحين بمسامير غليظة صدئة، يتزيّن الأيمن منهما بمِقْرَعَة نحاسية دائرية الشّكل، تتّكئ بكامل ثقلها على قاعدة معدنية متينة.

ولج أبي أولاً، فدخلتُ من بعده، قبل أن يوقفنا الرّجل المسؤول عن حراسة الفندق قائلا:

- إلى أين؟

- **المْعَلَّم أحمد الخرّاز.**

فقال الحارس، وهو يشيرُ إلى غرفة في الطّابق العلوي:

- هناك.

- أعلم محلّه. ردّ أبي بفتور.

عند عتبة غرفة لا تتجاوز مساحتها الثمانية أمتار مربّعة وقف أبي، فمدّ يده بعد ذلك مُحْدثاً طرقاً خفيفاً على بابها.

- **من؟ عبد العاطي!**

صاح المعلّم أحمد باندهاش، وهو يتطلّع إلى الشّخص الواقف أمامه.

فأجاب أبي، وابتسامة عريضة تعلو وجهه:

- هو بشحمه ولحمه.

- مرحبا.. مرحبا.. زارتنا البركة في هذا المساء السّعيد.

- بارك الله في أصلك الطّيب صديقي الغالي.

تعانق الرّجلان عناقا طويلاً، قبل أن يخاطبني أبي، قاطعاً انشغالي بتفرّس معالم الفندق:

فناء شاسع ينتهي بفسحة واسعة في الأعلى تصل الأرض بالسّماء..

شرفة تصل بين الحجرات وتمتدُّ على واجهات الفناء الأربع..

شجرة ليمون مترامية الظلال في الوسط..

نافورة صغيرة تحت جدعها..

مرحاض عند الزّاوية اليسرى..

سقاية ماء عند الزّاوية اليمنى..

وغرف متجاورة، تتوزع بنفس الحجم والعدد بين الطّابقين، تتناهي منها أصوات مختلفة (قرعٌ وطرقٌ وموسيقى وجدال...)

- **رشيد!** رشيد! تعالَ لتسلّم على المعلّم أحمد!

تقدّمتُ بخطى مرتبكة حتى إذا دنوتُ من المعلّم أحمد لثمتُ يده على استحياء، وتقهقرتُ للخلف محتمياً بظهر والدي.

- اجلسا! تفضلا! سننتظر عودة مساعدي حسن من سّوق السبيطريين، وبعدها نتوجّه إلى الدّار.

***

بعد تناول وجبة العشاء، بسط أبي أمام صديقه سبب الزّيارة وغايته منها، فما كان من المعلّم أحمد إلاّ أن رحّب بالفكرة، ووعده بأن يعتني بي، ويجعلني فرداً من الأسرة.

- سأحرص على أن يبيت هنا في المنزل، ويرافقني في كل صباح إلى الفندق.

- أعتقد أنّه يوجد في الفندق مكان للنّوم؟

- نعم موجود. ينام هناك مساعدي حسن.

- دعْ رشيد يبيتُ هناك لو سمحت، فالعيش في الفندق، وسط الصّناع والحرفيين، سيتيح له فرصة التعلّم من تجاربه.

ثم بنبرة مرحة زاد أبي قائلاً:

- أريده أن يكون رجلا شهماً.

- وهو كذلك شبل سليل أسد.

فتضاحك الصّديقان، بينما جمدتُ في مجلسي بلا حراك.

وقبل الاستسلام للنّوم همس لي أبي قائلا:

- منذ هذه اللّحظة أنت ابن للمعلّم أحمد. أطِعْه واجتهد في إرضائه يا بنيّ.

- أمرك يا أبي. أمرك!

- نَمْ الآن يا بنيّ!

- ...

٤

- ادخل لتتعرّف أكثر على **حسن!**

صاح بي المعلم أحمد، بينما كنتُ مشغول البال باختفاء أبي في ذلك الصّباح دون وداع!

وما سلّمتُ على حسن، حتّى شرع المُعلّم أحمد يخاطبه قائلاً:

- حسن! هذا الفتى سيساعدنا إن شاء الله، ونحن بالمقابل لن نبخل عليه بأي شيء حتّى يتعلّم الحرفة على أصولها.

- مرحبا به.

ردّ حسن برحابة صدر، قبل أن يضيف:

- هذا هو لِيشِيرْ الجديد إذن؟

- أجل.

- هذا ما قدّرته بالأمس.

- لكن وقبل كل شيء دعني يا حسن أتفاهم معه، وأوضّح له كافّة الشّروط.

- **كما تأمر عَزّي أحمد.**

أجاب حسن فانبرى لشغله، على حين صاح بي المعلّم أحمد قائلاً:

- ستبقى **متعلّماً** عندي يا رشيد بدون أجرة إلى أن تتعلّم، وبالمقابل سأتكفّل بتغذيتك وإيوائك وكسوتك وحمّامك مرّة في الأسبوع.

وعندما ترتقي إلى رتبة **صانع**، كما هو الحال بالنّسبة لحسن، عندها سأدفع لك أجرتك عشيّة كل خميس كما يأخذها بقيّة الصنّاع في المدينة بأكملها، وسيتعيّن عليك وقتذاك أن تنفق على نفسك.

- أنا موافق على كلّ ما تراه ملائما لي عَزّي أحمد.

صحتُ مردّداً العبارة التي تلفّظ بها حسن قبل قليل.

صمت المعلّم أحمد لحظة ثم زاد:

- بقيَ شرط واحد يجب توضيحه أيضاً.

- تفضل عَزّي أحمد!

- لا كذب، ولا غشّ، ولا مشاكل.

- إن شاء الله لا كذب، ولا غشّ، ولا مشاكل.

- جميل! أمّا الآن فحاول أن تركّز معي يا ابني.

صاح الْمُعلّم أحمد، فحرَّكتُ رأسي دلالة الموافقة، وراح يذكر لي بمهل أسماء ما كانت تقع عليه عينه من أدوات العمل:

- فأما هذه فتسمّى القُورْميل.

وهذا خْفيفْ الطْريخْ.

وهذا خفيف الدْليكْ.

وهذا ثْقيل التْبطين.

وهذا الرْكابْ

وهذه اليْشْفَة

وهذه الإبر

وهذه الشْفْرَة

وهذا المقصّ

وهذا اللْزازْ

وهذا الفَرْدي

وهذه القْياساتْ.

توقّف لحظة، ثم انتقل ليعرّفني على بعض المواد التي تدخل في عمليّة صناعة البَلْغَة الفاسية:

- هذه يا بنيّ تدعى الصَّفْحَة

وهذا السّيليسْيون

وهذا النْعَل

وهذه البْطانَة

وهذا البُّونْجْ

وهذه الصَّارْمَة

وهذا الجلد

وهذا الخيط

وهذا الشّمع.

كنتُ أستقبل الأسماء بتركيز تام، مدارياً شعور الغرابة الذي يعتريني، أمّا المعلّم أحمد فاستتلى قائلا:

- سيتعيّن عليكَ، بالإضافة لما يفرضه تعلّم الحرفة، أن ترافقني كلّ صباح للتسوّق، وأخذ الأغراض إلى الدّار، وجلب الأكل، وقضاء بعض المآرب الأخرى...

- أجل عزّي أحمد.

- وعندما لا أكون هنا سيتعيّن عليك أن تطيع أوامر حسن.

- حاضر عزّي أحمد.

٥

بعد العصرِ مباشرةً قصدتُ وحسن سوق السّباط لبيع منتوج اليوم. ورأسا توجّهنا إلى الدّلاّل، سلّمناه ما بحوزتنا، ولبثنا في مكاننا ننتظر أوبته.

وبعد ساعة من الزّمن تقريبا عاد إلينا بثمن السّلعة.

- حركة البيع والشّراء ضعيفة هذه الأيام. صاح الدّلاّل بتبرّم.

- نأمل خيراً إن شاء الله في قادم الأيّام عمّي الصّنهاجي.

- ونِعم بالله. هل هذا ليشير الجديد؟

- نعم عمّي الصّنهاجي.

- اهتمّ به جيّدا!

- وهو في عيوني عمّي الصّنهاجي.

- بارك الله فيك.. أبلغ سلامي للمعلّم أحمد!

- يصِلْه إن شاء الله.

وبتوديعنا للدّلاّل الصّنهاجي، انفتلنا عبر الدّروب والأزقّة الضّيّقة، قاصدين سوق السبيطريين للتزوّد بالمواد الأوليّة.

ومنه حصلنا على كل ما أوصانا المعلّم أحمد بجلبه.

- بقيَ أمر واحد علينا القيام به، وبعدها نتحرّر من الواجب اليوميّ.

- وما هو؟

سألتُ حسن بفضول.

- اتبعني إلى الفندق!

وإثرَ وصولنا وضعنا حملنا، وسلّم حسن ما كان بحوزته من مال للمعلّم أحمد.

- هل جلبتَ كلّ ما أوصيتُك به؟

- نعم.

- وهل دفعتَ المقابل؟

- نعم.

كان المعلّم أحمد يعلم علم اليقين بأن حسن قام بالواجب، لكن ومع ذلك كان يحرص على سؤاله، وكأنّ الأمر صار شبه عادة متأصّلة فيه!

وقبل أن يدسّ المعلّم أحمد المال في جيبه بسط راحة يده، ومنها تناول قطعة نقدية منحني إيّاها وهو يقول:

- هذه **تَطْرِيبْة** اليوم. تفضّل!

- شكراً لك عزّي أحمد. قلتُ والفرحة تملأ قلبي.

- هل ستأتيان لأخذ وجبة العشاء؟

- لا عزّي أحمد، سأجهزّه بنفسي ترحيباً بأخي رشيد.

- وهذا المضمون فيك يا حسن. حفظكما الله ورعاكما.

- وبارك لنا في عمرك عزّي أحمد...

وبنظرات طافحة بالإعجاب والتّقدير، شيّعنا المعلّم أحمد إلى أن خرج من الفندق قاصداً داره المتواجدة بالجوار.

٦

فور مغادرة المعلّم أحمد انهمكنا في تنظيف المكان، وتحويله من دكّان للعمل إلى غرفة صالِحة للعيش!

لم يكن الأمر صعبا على حسن الذي اعتاد القيام بذلك بشكل يوميّ، بقدر ما كان جديداً عليّ.

تحت أنغام الموسيقى الكلاسيكية العذبة المنبعثة من جوف المذياع المعلّق على الحائط، شرعنا في جمع أدوات العمل، ومعها الموادّ الأولية، في عمق الغرفة. ثم بسطنا حصيراً، وفردنا عليه بعض الأفرشة وثلاث وسادات ومائدة من البلاستيك.

وضع حسن بعد ذلك قنّينة غاز صغيرة عند عتبة الباب، وجعل فوق نارها الهادئة طاجناً يُطبخُ.

الفرق بيّن وشاسع بين المكان الذي كنت أعيش فيه وهذا المكان.

لا مجال للمقارنة إطلاقا. لكن ومع ذلك استشعرتُ متعة من نوع خاص!

لعلّ مصدرها غواية التّجربة الجديدة؟ أو التّفاصيل الغريبة؟ أو الشعور بامتلاك ناصية أمري؟ أو التحدّي المضمر لوالدي الذي أوصى المعلّم أحمد بأن يتركني لأحيا حياة الفندق؟

ربّما كلّ هذا!

وربّما لا شيء منه!

وبتناولنا لوجبة العشاء تمدّد كل واحد منّا في مكانه، وطفِقنا نحلقُ في السّقف.

- دعنا نتحدّث قليلا. هتف حسن وهو يمدّ يده لإطفاء المذياع.

فأجبتُه من فوري:

- ولِمَ لا!

- في الحقيقة أعجبني ما قام به والدك.

- وما الذي قام به؟

- أقصد مرافقته لك إلى هنا، وحرصه على أن تتعلّم حرفة ما.

- وأنت ألم يرافقك والدك أوّل مرّة؟

- يرافقني!

عقّب حسن هازئا، قبل أن تتبدّل نبرته وسِحنته:

- لم يفعل ذلك، فقد جئتُ إلى مدينة فاس أوّل مرّة هرباً واحتجاجاً على ما اقترفه في حق أختاي وأمّي.

- وما الذي اقترفه؟

- زوّج أختي ملاك قسراً، وانتزع أختي ليلى من أحضاننا قهراً، وتسبّب في جنون أمّي.

- وكيف حدث كلّ هذا!

- سأبدأ أوّلاً بأختي ليلى.

- تفضّل!

- ذات يومٍ، قام أبي من نومه مع خيوط الشّمس الأولى، فتوضّأ وصلّى، وجعل يجهّز دابّته.

كان صباحاً صيفيا مخرّما بشدو العصافير وزقزقتها، وكان يوماً منتظراً عندنا جميعاً، وبشكل خاص عند أمّي التي كانت تستعدّ له بكل جوارحها وطاقتها، بدايةً من تنظيف منزلنا الطّيني، ووصولاً إلى وضع أصص الرّيحان في جنباته، وتزيين جدرانه بصنوف شتّى من الرّسومات، مستعينة في ذلك بطين أحمر كانت تجلبه لها أختي الكبرى ملاك من أقصى القرية.

وما إن جهزت الدّابة حتى امتطى أبي ظهرها.

(لا أحد يتبعني!) همرَ أبي، فسعى شطر الطّريق الوحيد الذي كان يربط القرية ببقيّة العالم. وعلى ناصيتها أخذ ينتظر وصول أخيه عبد المنعم، وزوجته لطيفة، القادمان من المدينة.

انتحيتُ لنفسي مكانا قصيّا للمراقبة، وقلبي معلّق بأمر واحد، هل سيحضرُ عمّي الكرة التي وعدني بها العام الماضي؟ أم لا؟

لم يسبقْ له أن وعدني ونكثَ وعده، ومع ذلك كنت قلقاً جداً، وكان الشكّ الممضي يقضّ مضجعي.

وتحت وطأة الانتظار القاسي ظهر عمّي وزوجته أخيراً، فهشّ قلبي الصغير لرؤيتهما وبشّ.

تقدّم أبي نحو الضّيفين مهلّلاً ومرحّباً، وفي غضون دقائق

معدودات، كانوا قد شرعوا في صعود التلّة.

أسرعتُ لإعلام أمّي وأختاي، فعدتُ من فوري لبرج المرقبة.

كانت الدّابة تتقدّم بمشقّة واضحة. وكان أبي من خلفها يشجّعها تارة على المضيّ قدما، وتارة أخرى يركلها ويصبّ جام غضبه عليها. وكانت زوجة عمّي لطيفة تتوكّأ على كتف زوجها المعتاد على تضاريس قريته، وتنهج من شدّة التّعب.

وفور وصولهم وجدونا في انتظارهم وأمارات الغبطة بادية على وجوهنا.

وفي سورة فرح صادق أرسلت أمّي زغرودة تعبيراً منها على المحبّة الخالصة والتّرحيب العفوي، بينما انهمك أبي في تحرير الدّابة من حملها، حتّى إذا خلّصها من عنائها قصد الزّريبة على عجل، فأحضر شاة وأمام أقدام الضّيفين نحرها.

حصلتُ على الكرة، وحصلتْ ملاك وليلى على دمى وهدايا عديدة، وحصل والداي على ما يعينهما على مواجهة الجفاف الذي كان قد اجتاح البلاد في ذلك العام، ولو بشكل نسبي. لكنّنا دفعنا الثّمن، أو على الأصحّ دفعتُ وأختاي وأمّنا الثّمن.

- كيف ذلك؟ سألتُ حسن بفضول طاغٍ.

- لم تكن زيارة عمّي وزوجته لنا في ذلك العام كمثيلاتها السّابقات، فما كاد يستقرُّ بهما المقام بيننا حتى

صرّحا برغبتهما في أخذ أختي الصغرى ليلى لتعيش في كنفهما، ويتّخذانها لهما بنتا.

- كيف!

- كنتُ أتوقّع من أبي أن يرفض الطّلب ويطردهما صاغرين، لكنّه، ويا للخيبة، أجاب قائلا بكل هدوء (وما الضّير في ذلك؟ عمّها في مقام أبيها، وزوجة عمّها كأنّها أمّها.)

وزّعت لحظتها نظراتي على الجميع. كان أبي يرمق أمّي بطرف عين، وكانت هي مشدوهة تحاول جاهدة أن تستسيغ ما قاله. وكان عمّي يداري حمرة الخجل الذي اعتراه فجأة، وكانت زوجته تحلق في الأرضيّة زائغة البصر، وكانت ملاك تكتم شهقتها، أما ليلي فكانت تراقص دُميتها.

(لا تقلقي عليها ولا تجزعي يا أختي، سأرعاها وأربّيها وأجعلها تلتحق بالمدرسة لتتعلّم أيضا.) نطقت زوجة عمّي مخاطبة أمّي.

(المدرسة! بارك الله فيك يا زوجة أخي. نحن على يقين تام بأنّك ستعتنين بها كما يجب وزيادة.) ردّ أبي بانشراح، قبل أن يضيف

قائلا: (في حال بقيَتْ هنا سَيُكْتَبُ عليها أن تشربَ من نبع الجهل كأختها.)

وفي لمح البصر تم تحوير النّقاش من انتزاع أختي ليلى من حضن أمّها وأخذها للعيش مع عمّي وزوجته العاقر، إلى التّفكير في مصلحتها، وحقّها في التعلّم!

- كانوا على اتفاق مسبق ولا ريب في ذلك. وما الذي حدث مع أختك الأخرى؟

- كما حدث مع ليلى، حدث مع أختي الكبرى ملاك، لكن بتفاصيل مغايرة من حيث المظهر، ومشابهة من حيث الجوهر.

- ؟

- لقد جاء زواجها لينكأ الجراح الغائرة، ويصبّ الزَّيت على نار اللَّوعة المستعرة بدواخلنا، وليدقَّ مسماراً آخر في نعش استسلامنا.

- في الحقيقة ما ترويه مؤلم جداً، ومع ذلك سأسألك التّفاصيل ؟

- انتصبت الخيام وسط السّاحة المترامية الأطراف، وامتلأتْ جنباتها بالأفرشة، وتلحّفت الأرض بالزّرابي، وتلوّنت السماء بالأعلام الخافقة، وسُرّجت الخيول، وجُهّزت البنادق، وزغردت النسوة، ورقص الصّغار على صوت المزمار وقرع الطّبول المنسجم مع نغماتها، وظلّت الأعناق تشرئبّ متطلّعة إلى دنو الموكب المهيب.

وما هي إلا لحظات حتّى صدحت الحناجر ترحبّ بالضّيوف والوافدين، فقيلَ ما يقالُ عادة للتّرحيب، وأجيبَ بما يفرضه الموقف من عبارات الشّكر والامتنان. وسريعاً أخذَ كلّ واحد مكانه حسب تراتبيّة فرضها واقع بأبعاد متداخلة ومتشابكة.

فأما صدر الخيمة الرئيسيّة فتربّع فيه **الحاج القطريب**، وإلى جانبه جلس مستضيفه (والدي). وأمّا الجوانب والهوامش فكانت من نصيب المتزّلفين والنّاقمين.

في غمرة الفرحة الكبرى أخذ الحاضرون، ممن رضي عنهم الحاج القطريب وارتضاهم والدي، يستمتعون بما تقدّمه الفرقة الموسيقيّة الشعبيّة من فرجة تستهويها القلوب وتسترضيها النفوس.

وفي الدّاخل كانت العروس تغرق في زينتها، وترسلُ دموعا صامتةً غزاراً، فلا هي بربع عمْر الحاج القطريب، ولا هي بنصف حجمه!

كان نسراً كاسراً، وكانت يمامة تتعلّم التّحليق في الأجواء، فانقضّ عليها وأرداها فريسة سهلةً بين مخالبه. وقد ساعده في ذلك والدي، وبكل أريحيّة قدّمها له قرباناً طمعاً في حمايته، وتقبّلها منه الآخر بالابتسامة العريضة، والدّم البارد.

كان الحاج القطريب كالحَ الوجه، ضخمَ الجثّة، واسعَ المنكبين، جاحظَ العينين قليلاً، مفلطحَ الأنف، غليظَ الشّفتين.

وكانت أختي ملاك اسما على مسمّى، بتقاسيم رقيقة، وقَدّ أملدَ رشيق، وعينين عسليّتين يُغْني بريقهما عن نور القمر، وأنف صغير كأنّه رسم على صفحة وجهها، وفم كان بالخاتم أشبه، وشعر حريريّ أسودَ منسدل.

تحلّقت النّسوة حول الطّريدة الثّاوية في فستانها، ومنهنّ من رقَّ قلبها لحال الصّغيرة، ومنهنّ من أغبطتها! أما أمّي فقد أخرس القهر لسانها، ومزّق الخوف أجفانها، وسدّ الغمّ حنجرتها، وحرمها والدي، كعادته، من التنهّد والشّكوى!

انتهتْ عروض الفرجة، فبُسطت الموائد وفُرد عليها ما لذَّ وطاب، فأكل النّاس حدّ الشّبع وزيادة، وأكلت القطط والكلاب حدّ التّخمة.

وبينما كان أهل القرية يتهيّبون لمغادرة الحفل، انتصب وسطهم شيخ عليل، فأنشأ يدعو للحاج القطريب حتّى أغدق عليه بالدّعاء، ولوالدي فأغرقه بالشّكر والثّناء، والقوم من بعده يلهجون بألسنتهم ويرددون في خشوع: (آمين.. آمين.. آمين...)

بعد ذلك، دلف أبي إلى المنزل وهو يقول: (سيعود الموكبُ أدراجه بعد قليل، جهّزوا حالكم!)

وما هي إلا ثوان حتّى تعالى صوت النّحيب والبكاء، قبل أن يقطعه بصوت أجشّ: (نحن في حفل زفاف ولسنا في مأتم!)

لفظ كلماته، وقد ظهرت على محيّاه لوائح الوعيد، ثم قفل عائداً إلى مجلس صهره، فسار خَبَبا للتّنعّم بدفء قربه، أمَّا فرحته به فكانت تضارع فرحة النّاسك المتعبّد بليلة القدر!

ولمّا ظهرت العروس عند عتبة الدّار، قام الحاج القطريب من مقعده، وبمساعدة نفر من رجاله امتطى صهوة حصانه الأبيض جلمود.

وما إن طابت نفسه للمقام العالي واستشعرت راحةً وحبوراً، حتى أتاه ردّ جلمود عنيفاً، فرفع قائمتيه الأماميتين في السّماء، ودار نصف دورة، وركل بقدميه الخلفيتين، وأردى القطريب على

بطنه أرضاً، فلفظه لفظاً شنيعاً.

ومن شدّة السقوط المدوي تناثر حوله غبار كثيف، وسُمع صوت صرخته المكتومة. وكأنّ الحصان بحركته تلك قد عبّر عن امتعاضه ورفضه له أن يكون زوجاً لأختي ملاك!

كفّ حسن لحظةً، ثمّ زاد قائلاً:

- لقد صهل جلمود، وقد تجسَّمت أمام ناظريه الفجيعة، فنطق بالحقّ. وكتم الحاضرون ضحكاتهم، فشاركوا في مراسيم وَأْدِ أختي ملاك.

- يا للفجيعة!

- أما جنون أمّي فقد خلَّف حصى الغبن في كبدي. ولسوء حظّنا ابتلينا برجل يلفظُ أفراد أسرته كما تلفظ عادة نواة التَّمر!

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله!

- لم أكن أعرف في مدينة فاس أحداً يمكنني أن أعيش في كنفه، ولا بيتاً أستطيع أن أطرقه وأحتمي به.

نقود معدودة..

جسد فتيّ..

ولا شيء أخسره..

هذا كل ما كان بحوزتي يومها.

- وماذا فعلت إذن؟

- كان من اليسير الحصول على عمل مؤقت وقتذاك. ولتأمين ما يضمن لي البقاء في مدينة فاس، أقصد المأكل والمبيت، فقد امتهنت حِرفاً متواضعة لا تحتاج إلاّ لقوة العضل، أو إلى شيء قليل من المعرفة.

وعلى هذا الأساس عملت « **مساعد شوّاط**» أشوي أكاريع الخرفان ورؤوسها، وبروالا أغزل الخيوط الصوفية الغليظة، **وفَرْناتْشيّاً** أسخّن مياه الحمّام، **وحمّالاً** أحمل البضائع والسلع والأمتعة، وكانت عيني على أن أصير **حَمّاراً** صاحب دابّة أستبدل ظهري بظهرها.

- وكيف وصلتَ إلى هنا؟ أقصد عند المعلّم أحمد؟

- شاءت الصُّدف ذات عصرٍ أن يطلبني المعلّم أحمد لحمل الموادّ التي اشتراها من سوق السبيطريين، وإيصالها إلى حيث نتواجد الآن.

وفي الطريق، سألني ما إذا كنت أفكّر في تعلّم حرفة أخرى بدل

مهنة الزَّرْزايْ وتعبِها المضني، فأجبته بأنّني مهتّم أشدّ ما يكون الاهتمام. ثم سألني عن عمري وعن مكان إقامتي، قبل أن يعرض عليّ المجيء في صباح اليوم الموالي لمباشرة التعلّم.

سكتَ حسن، قبل أن يستأنف حديثه، قاطعاً حبل الصّمت الذي ران في الأجواء للحظات:

- البداية دائما تكون صعبة أخي رشيد وبعدها تتّمهد السّبل.

- أصبت.

- تستطيع أن تعتمد عليّ دائماً.

- شكراً.. شكراً جزيلاً لك.

- لا تشكرني إطلاقا، فمنذ الآن أنت أخي الصّغير.

- يسعدني أن أسمع منك هذه الكلمات، فهي باعث حقيقي على الاطمئنان. بقي فقط أن أسألك عن سبب تسمية هذا المكان **بفندق دمّاحة**؟ من أين جاء هذا الاسم؟

- يروي النّاس يا أخي أنّ سيّداً اغتصب إحدى إمائه اغتصاباً نتج عنه حملها. ويُحكى أيضاً أنّه احتجزها في هذه الغرفة التي تأوينا الآن، وقد حصل ذلك قبل معرفته بحملها.

ولمّا علم بأنّه زرع نطفته بداخل رحمها، سعى إلى تحريرها وطلب يدها للزّواج، وقد ندم على فعلته، وكان هذا الفندق مهرها.

وما كان من تلك السيّدة، بعد أن صارت حرّة وزوجة لسيّدها السّابق، إلاّ أن قامت ببيعه، وبثمنه حرّرت عدداً هائلاً من عبيد فاس.

ومنذ تلك اللّحظة غيّر أهل فاس، اعترافاً وإكباراً، اسم هذا المكان من «فندق اللّيمون» إلى «**فندق دمّاحة**».